المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

المكتبة الثقافية
جامعة مرة
العدد ٢٠٤

أدب المقاومة

تأليف : عباس خضر



١٥ اغسطس ١٩٦٨
الثمن ٣ قروش

المكتبة الثقافية

جامعة حرة

٢٠٣

أدب المقاومة

تأليف: عباس خضر

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

كان الأديب العربى دائمـــا فى مجال المقاومة يخطب ويكتب وينشد الشعر معبرا عن اهتمامات قومه وعمـــا يضطرب فى نفسه وما يجول فى فكره ، ملهبا للعواطف ، موقدا نار الحماسة ، مدافعـــا بالمنطق والحجة عن الحقوق والحريات ٠

ولم يتخلف الأدب العربى عن دوره فى الكفاح والمقاومة فى أى عصر من العصور ، ولم يهمد له جفن كلما تعرضت الأمة العربية فى أى قطر من أقطارها لأى اعتداء أو هددها أى خطر ٠

ونلاحظ أن أدب المقـــاومة العـــربى اشتد وغزر فى فترتين من تاريخنا حفلتا بالأحـــداث الكبيرة والصراعات العارمة بين العرب وأعدائهم فى الخارج والداخل ٠

تانكم الفترتان هما زمن الحروب الصليبية ، والعصر الحديث ٠ وقد رأينا أن نقصر البحث عن أدب المقاومة فى هاتين الفترتين ، لأنه فى الأولى مجهول لا يعرفه الا القليل من المتخصصين ، أمـــا العصر الحديث فهـــو القريب الى حاضرنا ، والمقاومة فيه تمتد فروعها الى الحاضر ، والعدو الذى كان يقاومه لا يزال ، وان اختلفت وجوهه وأسلحته٠

الفصل الأول

أدب المقاومة فى عصر الحروب الصليبية

فى الحروب الصليبية صاحب التعبير الأدبى بصوره المختلفة معارك القتال ، بل سبقها بالحث والتحريض ، وأشاد بالابطال وتغنى بالانتصارات ، وأخذ بعدها يصور معامعها وما حدث فى خلالها وما تأثرت به الحياة العربية من مؤثراتها فى مختلف النواحى ، وكان للخيال القصصى من ذلك معين لا ينضب •

وكان ذلك بكل أشكال الأدب المعروفة من خطابة ورسائل وشعر وقصص ، وحتى النوادر والنكات الساخرة شاركت فى المقاومة الأدبية • نذكر من ذلك رسائل القاضى الفاضل الى صلاح الدين الأيوبى – وكان وزيرا له – التى كان يبعث بها اليه فى ميدان القتال ، كتب اليه فى احدى الرسائل يصور له الجهاد وثوابه :

« وكل مقترح يجاب اليه الا ثغرا يصير نصرانيا بعد أن أسلم ، أو بلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم . يامولانا . هذه الليالى التى رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التى ينادى فيها :

ياخيل الله اركبى ، وهذه الساعات التى تزرع الشيب فى الرءوس ، وهذه الغمرات التى تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هى نعمة الله عليك ، وغراسك فى الجنة ، ومحصلات محضرك يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وهى مجوزاتك على الصراط ، وهى مثقلات الميزان ، وهى درجات الرضوان ، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر .

ثم يوصيه بقوله :

« وأهم الوصايا ألا يحمل المولى (يقصد صلاح الدين) هما يضعف به جسمه ويضر مزاجه ، والأمة بنيان ، وهو أبقاه الله قاعدته ، والله يثبت تلك القاعدة فى نصرة الحق . ومما يستحسن من وصايا الفرس : (ان نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز ، وان نزل بك ماليس لك فيه حيلة فلا تجزع) ورب واقع فى أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه وكفى خطبه ، وماتشاءون الا أن يشاء الله » .

ولما استعاد صلاح الدين بيت المقدس من أيدى الصليبيين هب الخطباء يخطبون فى الناس ويشيدون

بالنصر ، ويحثون على مواصلة الجهاد ، ويذكرون بما وعد الله به المجاهدين من عظيم الأجر ونعيم الجنة ، ومن أهم **تلك الخطب خطبة ألقاها العالم الدمشقى القاضى محيى الدين** فى المسجد الأقصى عقب دخول العرب بيت المقدس ، قال فيها :

« **أيها الناس ، أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية** القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه » الى أن يقول فى وصف بيت المقدس : « فهو موطن أبيكم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام وقبلتكم التى كنتم تصلون اليها فى ابتداء الاسلام . وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل تنزل الأمر والنهى . وهو فى أرض **المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو فى الارض المقدسة التى** ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله) ، وقال:

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) . وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال - بعد المسجدين - الا اليه ، ولا تعقد الخناصر - بعد الموطنين - الا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية. جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ماتقربتم به اليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة ، فهى دار السعداء » .

التأليف

وقد رأى بعض علماء الاسلام الذين عجزوا عن حمل السيوف والقتال أن يعوضوا هذا بجهاد فكرى ، فاتخذوا من التأليف ميدانا للكفاح ، فظهرت كتب كثيرة فى الرد على اليهود والمعتزلة والمجوس مثل كتاب « هداية الحيارى من اليهود والنصارى » لابن قيم الجوزية و « اجتماع

الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية » له أيضا .
وألفت كتب كثيرة فى فضائل الشام والقدس والمسجد
الأقصى ، واتخذ المؤلفون من تاريخ ابطال الاسلام الأوائل
مجالا لبث روح الحماسة والتحريض على الجهاد . وظهرت
كتب كثيرة فى السياسة والتاريخ وتدبير شئون الرعية
وفنون الحرب مثل كتاب « المنهج المسلوك فى سياسة
الملوك » لعبد الرحمن بن عبد الله من علماء القرن
السادس . وقد تضمن بابا كبيرا عن سياسة الجيش وما
ينبغى لأهله من حقوق الجهاد وكيفية مصابرة الأعداء ،
ومن طريف ماتضمنه هذا الكتاب : « ان الله تعالى فى
الأصل فرض على كل مسلم أن يقاتل عشرة من المشركين .
ثم ان الله تعالى بعد ذلك خفف عن المسلمين لما شق عليهم
الأمر فأوجب على كل مسلم أن يقاتل رجلين . ثم ان الله
حرم على كل مسلم أن ينهزم من مثليه الا لأحد أمرين ،
اما متحرف لقتال فيأوى للاستراحة أو لمكيدة ويعود الى
قتالهم ، واما أن يتحيز الى فئة أخرى ليجتمع بها على
قتالهم » .

ومثل كتاب « الترغيب والترهيب » للامام الحافظ
زكى الدين ، وهو يشتمل على أحاديث نبوية فى الترغيب
فى الجهاد بمختلف وسائله ، كالترغيب فى الرباط فى
سبيل الله وفى الحراسة ، وفى النفقة وتجهيز الغزاة
وخلفهم فى أهلهم ، وفى احتباس الخيل للجهاد لا رياء
ولا سمعة ، وفى الغدوة فى سبيل الله والروحة ، وفى

طلب الشهادة فى سبيل الله ، وفى الرمى ، وفى الدعاء عند الصف والقتال ، وفى اخلاص النية فى الجهاد ، وما جاء فيمن يريد الأجر والغنيمة والذكر ، وفضل الغزاة اذا لم يغنموا • ومما أورده المؤلف من هذه الأحاديث : « من جرح جرحا فى سبيل الله جاء يوم القيامة ريحه كريح المسك ولونه لون الزعفران عليه طابع الشهداء ، ومن سأل الله الشهادة مخلصا أعطاه الله أجر شهيد ولو مات على فراشه » •

ويشتمل هذا الكتاب كذلك على أحاديث أخرى فى الترهيب من الفرار من الزحف ، ومن الغلول والتشديد فيه ، والغلول هو ما يأخذ أحد الغزاة من الغنيمة مختصا به ولا يحضره الى أمير الجيش ليقسمه بين الغزاة سواء قل أو كثر •

وقد سجل المؤلفون فى كتب الأدب كثيرا من النوادر التى وقعت حوادثها بين أفراد من المسلمين وجنود الافرنج ونسائهم ، وفيها كثير من السخرية والزراية بالأعداء ، كما تضمن اشادة بالشجاعة العربية والفضائل الاسلامية ، منها ماروا‌ه « أسامة » فى كتاب « الاعتبار » قال : « وفى شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها نصرة ، خرجت مع الناس أخذت افرنجيا أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر ، وعادت أخذت آخر ، فاجتمع عندها ثلاثة من الافرنج • فأخذت ماكان معهم وما صلح لها من سلبهم ، وخرجت ودعت قوما من جيرانها قتلوهم •

وبذلك أغنت الحروب الصليبية الأدب العربى بالتأليف ، ولم تقتصر المؤلفات على موضوعات الحرب نفسها وما يتصل بها ، بل تناولت مختلف العلوم الاسلامية على وجه عام .

الشعر

وكانت تلك الحروب أيضا باعثا للشعر الصادق الحى ، فقد انفعل بها الشعراء والتهبت عواطفهم ، فعبروا عما يجول بقرارة نفوسهم تعبيرا صادقا ، فاذا انتصر ملك أو قائد عربى على الافرنج فاسترد بلدا أو استولى على حصن انبعث الشعراء يهنئونه ويمدحونه مشيدين بشجاعته ، ويهجون الأعداء ويحرضون جيوش المسلمين عليهم حتى يطهروا الارض من أرجاسهم . وهما مدح وهجاء صادقان ينبعث القول فيهما من قرارة الأعماق، وكان الشعر الذى قيل فى هذه الأغراض يختلف عن الأشعار الأخرى المتكلفة التى سادت فى تلك العصور ، كما كان معبرا حقا عن الشعوب العربية وما كان يجول فى جوانحها ازاء تلك الحوادث بما فيها من انتصارات وما لابسها أحيانا من هزائم وانتكاسات .

والابيات الآتية تدل على روح الشمول والتجاوب بين أرجاء الوطن العربى ، تلك الروح القوية الخالدة التى لم تؤثر فيها نزاعات الحكام واستقلالهم بأجزاء تفصل عن أجزاء من الكل الخالد ، كما لم يؤثر فيها فيما بعد الاستعمار

الذى حاول عبثا أن يقطع الأواصر بينهما . قال البهاء زهير عقب استرداد المصريين مدينة دمياط من أيدى الغزاة فى عهد الملك الكامل :

وما فرحت مصر بذا الفتــح وحدها
لقد فرحت بغــداد أكثر من مصر

فلو لم يقم (١) بالله حــق قيــامه
لمــا سلمت دار الســلام من الذعر

واقسم لولا همــة كاملية
لخافت رجال بالمقام وبالحجر

فمن مبلغ هذا الهنــاء لمكة
ويثرب تنهيه الى صــاحب القبر ؟

وقد نهج الشعراء فى المدح منهجا موضوعيا ، اذ كان ما حققه الممدوح من انتصــار وما يلابس ذلك من تصوير الحوادث ووصف الأعداء وعسفهم وباطلهم ـ كان ذلك هم الشاعر أكثر من اهتمامه بذات الممدوح .

وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان ـ وهو من الأندلس جاء الى المشرق وأقام به ـ فى صــلاح الدين الأيوبى لما رد الصليبيين عن محاولة استرداد القدس :

أما رأيت ابن أيوب اســتقل بمـا
يعيى الزمان وأهليــه تحصله

هاج الفرنج وقد حاروا لفتكته
فاستنفروا كل موهـوب تغلغله

---

(١) الملك الكامل

لما سبى القدس قالوا سوف نتركها
والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصر القبر والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا
الى الخوامع ألقاه ترحله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم
واستكثروا المال والهيجا تنقله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه
وكلما لج صدما جل مقتله

والأبيات الآتية تشير الى ما ساد البلاد العربية قبل صلاح الدين من ضعف وتمزق وتقاعد ، مما أطمع فيها الصليبيين ، وهى من قصيدة قالها أبو على الحسن بن على الجوينى فى صلاح الدين :

أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده
صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس
فخام عنها وصمت منه آذان

هذا وكم ملك من بعده نظر الاسلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرخ والاسلام أنصاره صم وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هـو للمعوان معوان

وقد أدت تلك الحال التى طالت « تسعين عاما » كما قدرها الشاعر السابق ـ الى اليأس من الانتصار على الصليبيين وتخليص القدس منهم ، فلما خلصها صلاح الدين ودحرهم أذهل ذلك الشعراء وعدوه من المعجزات ، قال أحدهم (محمد بن أسعد الجوانى) فى مطلع قصيدته :

أترى مناما ما بعين أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر

وقال الجوينى فى قصيدته السابقة :

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذى الفتوح فتوح الانبياء وما
لها سوى الشكر بالافعال أثمان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن

وفى أثناء فترة الضعف والتمزق كان الشعراء يحاولون أن يثيروا الهمم ويبعثوا العزائم ، فخاطبوا الامراء والحكام بالشعر الحماسى كى يهبوا للقتال ، قال ابن الخياط الدمشقى يخاطب عضو الدولة :

وانى لمهد اليك القريض يطوى
على النصح والنصح يهدى

وقد جاش فى أرض افرنجة
جيوش كمثل جبال تردى
تراخون من يجترى شدة
وتنسون من يجعل الحرب نقدا
أنوما على مثل هد الصفا
وهزلا وقد أصبح الأمر جدا
وكيف تنامون عن أعين
وترتم فأسهرتموهن حقدا

الى أن يقول :

فحاموا لدينكم والحريم
محاماة من لا يرى الموت فقدا
وسدوا الثغور بطعن النحور
فمن حق ثغر بكم أن يسدا

وحينما كان يزداد خطر الصليبيين ويغيرون على بعض البلاد ، فى غفلة أمراء العرب وتوانيهم عن الدفاع ، كان الشعراء يهيبون بهم ويقرعون لهم الاجراس ، كما قال ابن النبيه يخاطب الاشراف :

يا حارس الدين لما نام حارسه
وناظما شمله من بعد تبديد
جهز جيوشك ان الثغر قد عبثت
به الفرنج فأضحى غير مسدود
أيدركون به أوتار قدسهم
منكم وذلك ملك غير مردود

يا للرجال أناديكم لنـازلة
تستنزل الماء من صم الجلاميد
أين الحمية هبوا من منامكم
اما لعـاجل دنيـا أو لمعبود

وكان الأمر يبلغ بالشعراء أحيانا مبلغ البكاء والنحيب عندما يرون عسف الصليبيين وتخريب البلاد وقتل أهلها وتشريدهم ، فيقول قائلهم :

أحل الـكفر بالاسلام ضيما
يطول عليه للدين النـحيب
فحق ضائع وحمى مباح
وسيف قاطـع ودم صبيب
وكم من مسـلم أمسى صليبا
ومسلمة لهـا حرم سليب
وتسبى المسلمات بكل ثغر
وعيش المسـلمين اذن يطيب
أما والله للاسـلام حق
يدافـع عنه شـبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا
أجيبوا الله ويحـكم أجيبوا

والبكاء ليس من قبيل السلبية أو اليأس فى المقاومة كما يتبادر الى بعض الاذهان ، وانما هو على عكس ذلك مثير للحمية ، فهو يقترن عادة بعرض الفاجعة ووصف النكبة

وتصوير المحنة ، فيؤثر فى النفوس ويثير العزائم ، وقد يكون تأثيره أشد وأبلغ مما يتجه الى التفاؤل الصريح ٠

صورة الاعداء فى الادب

ونلحظ فيما كتب من النثر وما نظم من الشعر فى وصف الأعداء والتحدث عنهم ـ نلحظ فى ذلك التناول الموضوعى من حيث تصويرهم على حقيقتهم وعرض واقعهم، فلم يتجاهل الكتاب والشعراء صفاتهم الايجابية الى جانب الصفات السلبية ، فتحدثوا عن شجاعتهم واتحادهم ، وايمانهم بعقيدتهم ٠ وقد تناولوا نساءهم من ناحيتين : ناحية الشجاعة وممارسة القتال الى جانب الرجال ، وناحية التبذل والانحلال مع فقد الغيرة عليهن من قبل أزواجهن ٠

ففى الوقت الذى يلحظ فيه الكتاب تفكك المسلمين وقعودهم عن الجهاد ، كما يصف ذلك القاضى الفاضل فى احدى رسائله الى صلاح الدين فيقول : « وليس لك من المسلمين كافة مساعد الا بدعوة ، ولا مجاهد معك الا بلسانه ، ولا خارج معك الا بهم ، ولا خارج بين يديك الا بأجرة ، ولا قانع منك الا بزيادة ، تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع وذراعا بباع ، تدعوهم الى الله وكأنما تدعوهم لنفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنما تكلفهم النافعة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم » ٠

فى نفس الوقت يلحظون عكس ذلك فى الأعداء ، فيصفهم القاضى الفاضل أيضا مخاطبا صلاح الدين :

« ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، لا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم ، مهطعين الى الداعى ، ساعين فى أثر الساعي ، وهم من كل حدب ينسلون ، ومن كل بر وبحر يقبلون » .

والواقع أن سياسة الاستهانة بقوة الاعداء وتحقير شأنهم فى القتال ليست من الحكمة فى شىء ، بل على العكس تؤدى الى قلة المبالاة بهم والتهاون فى اعداد العدة لهم ، ومن ذلك ما روى عن قتيبة بن مسلم اذ خرجت عليه خارجة بخراسان ، فأهمه ذلك ، فقيل له : ما يهمك منهم؟ وجه اليهم وكيع بن أبى صرد ، فانه يكفيكهم . فقال : لا ، ان وكيعا رجل به كبر يتحاقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بأعدائه ، فلم يحترس منهم ، فيجد عدوه غرة منه .

وفى وصف نساء الافرنج بالشجاعة والجد والبذل فى سبيل عقائدهن يقول العماد الأصفهانى فى كتابه «الفتح القدسى» :

« ووصلت أيضا فى البحر امرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر ، وهى فى بلدها مالكة الأمر ، وفى حملتها

خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم ، وغلمانهم وأشياعهم، وهى كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المئونة ، زائدة بما تنفقه فيهم من المعونة ، وهم يركبون بركباتها ، ويحملون بحملاتها ، ويثبون لوثباتها » ويقول : « وفى الفرنج نساء فوارس ، لهن دروع وقوانس ، وهن فى زى الرجـــال ، ويبرزن فى حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ، وكل هــذا يعتقدنه عبـــادة ، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ، ويجعلنه لهن عادة ، فسبحان الله الذى أضلهن ، وعن نهج النهى أزلهن • وفى يوم الوقعة وقعت منهن نسوة ، لهن بالفرسان أســـوة ، وفيهن مع لينهن قسوة ، وليست لهن سوى السوابغ كسوة ، فمـا عرفن حتى سلبن وعرين ، ومنهن عدة استبين واشترين • وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ، ويقلن ان الصليب لا يرضى الا بالاباء، وانه لابقاء له الا بالفناء ، وان قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء ، فانظر الى الاتفاق فى الضلال بين الرجال منهم والنساء » •

وفى الحديث عن عيوب الافرنج وانعدام الغيرة على نسائهم ، وتبذل هؤلاء وتجردهن من العفاف ، يقول أسامة ابن منقذ فى « الاعتبار » :

« وليس عندهم شىء من النخـــوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته ، يلقـــاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحيـة

ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومشى • ومما شاهدت من ذلك أني كنت اذا جئت الى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له « معز » داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح الى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل افرنجى يبيع الخمر للتجار • يأخذه فى قنينة من النبيذ وينادى عليه ويقول : فلان التاجر قد فتح بتية من هذا الخمر ، من أراد منها شيئا فهو فى موضع كذا وكذا • وأجرته عن ندائه النبيذ الذى فى تلك القنينة • فجاء يوما ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش فقال له : أى شيء أدخلك الى عند امرأتى ؟ قال : كنت تعبان ، دخلت أستريح • فسأل : فكيف دخلت الى فراشى ؟ قال : الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ قال : وحق دينى ان عدت فقلت كذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكره ومبلغ غيرته » •

القصص

كانت حوادث الحروب الصليبية خير مادة للقصص، سواء منها التى تحكى وقائع حدثت والتى وضعها القصاصون فى أشكال شعبية تمزج بين الواقع والخيال ، أو تعتمد على خيال يماثل الواقع •

وأحاديث أسامة بن منقذ التى أتينا بطرف منها تعد من قبيل ما وقع ، وهى وان كان الكاتب لم يقصد

بهـــا فنا قصـــصيا ـ قصص على اى حال ، ونلحظ انه يسترسل فى أسلوبها مستعملا كلمات وعبارات دارجة ، ولم يفعل ذلك فى كتاباته غير القصصـــيه ، كأنه أحس بسليقته أن هذا النهج أليق بالقصص وأقدر على تصوير الواقع .

وقد استغل القصاص صورة المرأة الافرنجيه التى شاهدوها تقاتل الى جانب الرجال فى فنون قصصية زخرت بخيال خصب يختلط بالواقع أو يستمد منه ، وقد جعلوها فى خدمة المقاومة العربية والاسلامية ، اذ تصور الـكفاح بين العرب والافرنج الذى ينتهى بانتصار الأولين وانهزام الآخرين ، وفى « ألف ليلة وليلة » قصص من هذا القبيل منها « حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية » .

و « مريم هى بنت ملك فرنســـا أسرت فى الحرب وعرضت للبيع فى الاسكندريه ، فأشتراها على نور الدين. وكانت فريدة زمانها فى الجمال والفروسيه والشـجاعة والفصاحة وتجيد صناعات الرجال والنساء .. الخ . وقد أسلمت وحفظت القرآن ودرست علوم الاسلام . ولما رأت على نور الدين أحبته وأحبها وتزوجها . ويدور الصراع فى القصة بين الزوجين الحبيبين وبين رجال ملك فرنسا وعلى رأسهم وزيره الأعرج الأعور الذى كلفه الملك أن يبحث عن ابنته فى جميع بلاد المسلمين ويستعيدها بأى ثمن . ويعرف مكانها ويدبر خطفها واعادتها الى أبيها وبلادها ، ثم تدبر هى الخلاص والرجوع الى زوجها ، وتقتل فى

سبيل ذلك أخاها الاكبر وتقول : « هل من مقاتل ؟ هل من مناجز ؟ لا يبرز لى اليوم كسلان ولا عاجز ، ولا يبرز لى الا اعداء الدين لاسقيهم كأس العذاب المهين ، يا عبدة الاوثان وذوى الكفر والطغيان ، هذا يوم تبيض فيه وجوه أهل الايمان ، وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن . »

ومن قصص « الف ليلة وليلة » التى يظهر فيها كذلك أثر الحروب الصليبية « قصة الصعيدى وزجته الافرنجية » وهى تدور على حب نشأ بين رجل صعيدى رحل الى الشام ليبيع الكتان وبين امرأة جميلة من نساء الصليبيين ، وكان قد التقى بها أولا ، ثم افترق عنها زمنا ، حتى رآها ضمن سبى من بنات الافرنج أسرهن الملك الناصر ، فأخذها بعشرة دنانير ، وأسلمت ، وتزوجها . ثم حدث بعد ذلك ان تم صلح بين المسلمين وأعدائهم يتضمن رد الأسرى من الجانبين ، فرد المسلمون الى الفرنجة من كان أسيرا لديهم من الرجال والنســـاء ، ولم يبق الا المرأة التى تزوجت الصعيدى ، وكانت زوجة فارس من فرسان الصليبيين ، فطلبها السلطان وشـدد فى طلبها ، ولكنها رفضت أن تترك زوجها المسلم وقالت للسلطان انها تريد أن تبقى مع زوجها المسلم لأنها أسلمت وحملت ولا تريد العودة الى بلادها .

وثمة غير ذلك السير الشعبية التى تصور البطولات العربية وكفاحها فى مقاومة أعداء العرب ، وهى تعكس الصراع التـاريخى بين العـرب والروم ثم بين العـرب

والصليبيين بطريقتها الفولكلورية ، أحيانا تمزج بين الخيال والوقائع التاريخية مثل سيرة الأميرة ذات الهمة ، وأحيانا أخرى تقوم على الخيال البحت الذى يرمز الى الواقع التاريخى مثل سيرة حمزة البهلوان ٠

وقد استغل الأيوبيون القصص فى الدعوة الى مقاومة الصليبيين ، فعينوا القصاصين فى فرق الجيش وفى المساجد وفى الأسواق ليقصوا سير الأبطال الأولين ووقائعهم فى الحروب وانتصاراتهم على الأعداء ، فكانوا بذلك يشعلون الحماسة فى النفوس ويذكون فيها الشوق الى الجهاد ٠

والواقع أن القصص الشعبية ـ بانتشارها بين الجماهير القارئة والأمية وفنيتها القصصية الممتازة ـ كان لها فعل كبير فى حياة الشعوب العربية ، من حيث الدفع الى مقاومة العدوان والشر بسائر أنواعه ، وكذلك من حيث كانت غذاء أدبيا شهيا للكثرة الغالبة من أبناء الشعب المحرومين من التعليم المعزولين عن أدب الخاصة ٠ وكان لها دور فعال فى المقاومة بجميع أنواعها ، مقاومة الأعداء الخارجيين ، ومقاومة الخائنين والمفسدين فى الداخل ومقاومة الشر والرذائل فى مختلف صورها وأشكالها ٠

ومن خصائصها الفنية أنها تصور الأعداء : أعداء العرب والاسلام وأهل الشر فى صورة القوى الجبار ، ولا تقصر ذلك على الأبطال المحبوبين ، حتى اذا انتصر هؤلاء

على أولئك وهزموهم وقتلوهم أو أسروهم كان ذلك دالا على شجاعة المنتصر .. وكان ذلك نفسه فى الحقيقة تصويرا غير مباشر للبطل المحبوب .

وأكثر هذه القصص تدعو بصورة فنية الى التجمع العربى فى وجه الأعداء فقصة « ذات الهمة » مثلا تصور بطريقتنا الشعبية الصراع بين العرب والروم بما فيه من اعتداءات ملوك الروم على الثغور والبلاد العربية وتشريد أهلها وقتل النساء والأطفال ، ومقاومة العرب لهم وطردهم من البلاد وتعقبهم الى ديارهم وفتح بـلادهم ، وفى خلال ذلك يعنى القاص بابراز الفضائل العربية والقيم الاسلامية ويقابلها برذائل الأعداء ونقائصهم .

وقصة حمزة البهلوان تصـور الصراع بين العرب والفرس ، اذ يلتفت البطل « حمزة » الى أن سر القـوة فى الفرس أنهـم يجتمعون الى ملك واحـد يوحـد كلمتـهم وصفوفهم ، فلا يغير قوم على قوم كما تفعل القبائل العربية التى يسـودها التفرق والشـقاق والحروب فيما بينها ، وأكبر ملوكهم ـ وهو النعمان ـ منقـاد لكسرى خاضـع لحكمه ، فيقصد أولا الى النعمان ويهاجمه ويتغلب عليه ، وينضم النعمان اليه ، ثم يتجه الجميع الى الفرس . ويهدف السـياق القصصى الى تجميع العرب فى مختلف بلادهم والقضاء على الحكام المستبدين فيها ، وازالة هيبة الأعداء من نفوسهم ، وتثبيت الثقة بالقوة العربية التى تستطيع أن تسود وأن تؤدب كل من يحاول السيطرة عليها .

وكثير من القصص الشعبية يقاوم التفرقة بين الأبيض والاسود من الناس ، مثل قصة عنترة والسيرة الهلاليه وبعض أجزاء سيرة ذات الهمة ، وذلك فى شخص « عبد الوهاب » ابن ذات الهمة ، اذ ولدته أسود. وهى بيضاء وابوه أبيض ، ووقعت بذلك فى مأساة انتصرت عليها بشجاعتها وبفضل تقواها واخلاصها للجهاد فى سبيل الله ، وكان سواد عبد الوهاب من مشكلاته التى حلها بالطريقة نفسها ، وكان يتخذ له فرقة خاصة من السود يقربها ويستعين بها فى الشدائد، فتفعل مالا يستطيعه البيض .

وقصة الظاهر بيبرس ترمى الى مقاومة الثالوث الذى لا تزال الأمة العربية حتى الآن تكافح للقضاء عليه : العدو الخارجى ومحاولاته العدوانية ، والتفرق الداخلى ، والظلم الاجتماعى .

و « سيف بن ذى يزن » ـ فى قصته ـ يكافح للحصول على « كتاب النيل » من بلاد الحبشة ، لأن الأحباش يستطيعون بهذا الكتاب أن يحجزوا مياه النيل عن مصر ، فاذا ما استولى عليه « سيف » فانه يجرى ماء النيل الى مصر ، وقد جرت الأحداث الى أن أنجب «سيف» ولدين : أحدهما تولى حكم مصر ، والآخر تولى حكم الشام . واتجه الاخوان الى حرب الحبشة ، وكأن القاص بذلك يرمز الى الصراع بين العرب والأحباش لعدوان الأخيرين بتأييد الصليبيين على العرب .

الفصل الثانى

أدب المقاومة فى العصر الحديث

بعد الحروب الصليبية ركد الأدب العربى على وجه عام ، وأدب المقاومة بوجه خاص · ولما استيقظ الوعى العربى على دقات الحضارة الحديثة فتح الفكر عينيه مأخوذا مذعورا ·· مأخوذا بما رآه من تقدم فى عالم غريب عليه ، ومذعورا من أنياب تكشر له تريد أن تلتهمه ، هى أنياب الاستعمار ، فبدأت المقاومة ·

والواقع أن مقاومة العرب للاستعمار سبقتها مقاومة أخرى ، هى مقاومة استبداد العثمانيين فى أواخر دولتهم : فى عهد « عبد الحميد » · وقد تمثل الاستبداد العثمانى وطغيانه فى حكم أسرة محمد على فى مصر وفى عسف الولاة الأتراك فى سائر البلاد العربية · ويظهر فى ميدان المقاومة الفكرية جمال الدين الأفغانى ، ويلتف حوله

ويستجيب لدعوته أعلام آخرون ، على رأسهم محمد عبده وعبد الله نديم والكواكبى والرصافي وسليمان البستانى ، وقد صور هذا استبداد الأتراك بقوله فى كتاب (ذكرى وعبر) :

« ... فالحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى الغرب الى أقصى الشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت من حولها ، هذا وأرباب الأمر فينـا يودون بقاءنا فى ظلمة مدلهمة ، فمعظم الشكوى اذن ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وان كانت دولة هذا الحكم قد دالت ، وانما هو من الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذى اباح الموبقات واستباح الحرمات ، استبد حكم الانذال برقاب الرجال ، فنكس الرءوس وأذل النفوس · استبداد لا مرشد له الا التعنت عن هوى تميل بـه النفس الى حيث لا تـدرى » ويقول : « هـذه بنغازى وبعض المدن النائيـة من أطراف السلطنة تضج منتحبة لما ترى من شنقاء المبعدين ، بل هذا البسفور يوشك أن يفور تلهفا على تلك الجثث فيقذف بها الى ثغريه خشية أن تبيت دفينة فى بطون الحيتان ، كم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزمن محدد لخبر روته عن جرائد أوربا ينبىء بمقتل وزير فى الصين ، أو أمير فى أفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير فى الهواء ، أو غواصة تسير فى الماء » ·

وجعلت أقلام الكتاب والشعـراء تهاجم الطغيـان العثمانى فى عنف وبدون تحرج ، وتعرض الكثير للاضطهاد

والتنكيل ، كان شوقي وحافظ ومحرم في مصر ، والرصافي والزهاوي والشبيبي في العراق ، والكواكبي في حلب ، والبستاني في لبنان ، وعبد القادر المغربي وابراهيم الجزائري في سوريا ، وغيرهم في بلادهم وفي باقي البلاد العربية ، كانوا يكتبون المقالات وينشدون القصائد ويؤلفون الكتب رافعين علم المقاومة الأدبية في كل مكان ، ومن ضيق عليه في بلده رحل الى بلد عربي اخر ، وكانت مصر مقصد الكثيرين منهم ، وعلى صفحات جرائدها ظهرت مقالاتهم وقصائدهم تنادي بالحرية وتندد بالطغيان وتهيب بالناس أن يقاوموه ·

وأخذت المقاومة العربية الأدبية – كما هي دائما – سمة الشمول والدعوى الى الوحدة العربية ، يقول ابراهيم اليازجي من سوريا :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طما السيل حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمال تخدعنا
وأنتم بين راحات القنا سلب
ألستم من سطوا في الارض واقتحموا
شرقا وغربا وغزوا أينما ذهبوا ؟
فما لكم ويحكم أصبحتم هملا
ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكم يشتد أزركم
بها ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم في عيون الـــترك نازلة

وحقـــكم في أيادى الترك مغتصـــب

فشمروا وانهضـــوا للأمر وابتدروا

من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

فيجاوبه عبد المحسن الكاظمي من العراق :

يا أيها العرب ، وأدعو العرب أنى وجدوا

ألستمو من حرموا حقوقهـــم واضطهدوا

وكلما عن لهم ذكر الحمى تنهـــدوا

أما كفاكم حافزا ذكر الذين استـــشهدوا

ويرتفع صوت سليمان الفاروقي من فلسطين :

بني انهضوا نحيا حياة عزيزة

حياة تعيد المجد للعرب ثانيا

ألا نهضـــة شرقيـــة عربيـــة

تزلزل أقواما وتوهي دواهيا ؟

ومن طرابلس يقول عبد الحميد الرافعي :

هبوا بني العـــرب الام الكرى

وقـــد دهـــا الآمـــال دهاسهـــا

ألستم نســـل القـــروم الأولى

تنتعل الهـــامات أفراســـها ؟

وفي مصر يقول شوقي :

قد قضى الله أن يؤلفنا الجـ

ـــرح وأن نلتقي على أشجانه

كلمـــا أن بالعـــراق جريح
لمس الشرق جنبه فى عمـــانه

ويأتى صوت من بعيد .. من المهجر حيث يقول الياس فرحات :

ما الشام ؟ ما لبنان ؟ ما حوران ؟ ما
عمان والقدس الشريف الخالد ؟
هذه الدويلات المبعـــثرة القوى
عمد يقـــوم بهن بيت واحد

ويشير قول اليازجى :

ألستم من سطوا فى الارض واقتحموا
شرقا وغربا وغزوا أينمـــا ذهبوا

وقول عبد الحميد الرافعى :

ألستم نســـل القـــرون الأولى
تنتعل الهـــامات أفراســـها

يشير ذلك الى ما استشعره العرب فى وعيهم الحديث من عراقة أصـــولهم ومجد أســـلافهم ، وقد قارنوا العزة القديمة بما صاروا اليه من ضعف وهوان ، وضرب الشعراء على هذه النغمة وهم يستحثون القوم للنهوض والكفاح ، ويذكرونهم بمجد الآباء ، وقيل فى ذلك شعر كثير .

وكان هذا التفاخر والاعتزاز ومحاولة بعث الروح فى الحاضر بالتذكير بالماضى ، كان ذلك منصبا – فى معظمه – على المجد العربى القديم ، وقد اتخذ أشـــكالا مختلفة من

الانتاج الأدبى والفكرى ، فالى جانب الشعر كتبت روايات ومسرحيات من التاريخ العربى والاسلامى ، وتراجم للأبطال وغير ذلك .

وصاحب الاتجاه الى المجد العربى فى التذكير بالماضى التليد اتجاه آخر الى قديم آخر مثل الفرعونية فى مصر ، وألفت فى ذلك روايات ومسرحيات أيضا ، وكتبت فيه مقالات وأنشئت بعض القصائد . ومما يذكر أن هذا الاتجاه اندس فيه بعض المغرضين المضادين للقومية العربية ، بباعث استعمارى أو ميل شعوبى . وقد قاوم ذلك أنصار القومية العربية واستمرت المعركة بين الطرفين مدة طويلة حتى حسمت بعد ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، اذ اتجه الانبعاث الى التجمع العربى ، وصار ذلك عقيدة قومية غالية لم يستطع أن يظهر أمامها أى اتجاه معاكس .

وأعتقد أن الامر حسم فكريا على وجه عام بأن المجد المحلى لا يتعارض مع المجد العربى العام ، بل هو يعززه ويعد لبنات فى بنائه .

***

وجاء الاستعمار مع الحكم العثمانى ، فتعددت جبهات المقاومة ، وصار الأدب يقاوم ظلم العثمانيين والمستعمرين الانجليز والفرنسيين الايطاليين ، ويتتبع آثار أصابعه فى كل تخلف أو فساد فى البلاد العربية ، وينبه الى محاولاته

فى المجــالات المختلفة ، ويستنهض الهمم للتخلص من كل ذلك .

ووجد الأدب نفسه أمام عديد من القضايا والاهتمامات الوطنية ، نذكر أهمها فيما يأتى :

١ ـ مقاومة الطغيان والظلم

كان معظم الأعمال الأدبيــة فى المقـــاومة يتمثل فى القصائد والمقالات ، وقد نشأت الى جانبها أعمال قصصية : روايات من التاريخ العربى والاسلامى والفرعونى ، كعرض وتجسيم للمجد القديم الذى ينبغى أن يحتذى ، وفعل مثل ذلك كاتبو تراجم الأعلام والأبطـــال ، والبعض الآخر من الاعمال القصصـــية صور إنتفاضة الأمة وثوراتهـــا على القوى المعادية للشعب الخارجيّة والداخلية .

وكان للشعر النصيب الأوفر من جهاد الظلم والطغيان من ذلك ما قاله جميل صدقى الزهاوى يصف ظلم الاتراك الذى كانت تقاسيه البلاد العربيه :

لهم أثر للجور فى كل بلـــدة
يمثــل من أفعـــالهم ما يمثل
اذا نزلوا أرضا تفاقم خطبهـــا
كأنهـــم فيهـــا البـــلاء الموكل
فمدت الى سورية يد عســفهم
تحملها من ظلمهـــم ما تحمل

وبغداد دار العلم قد أصبحت بهم
يهددها داء من الجهل معضل
وسل عنهم القطر اليماني انه
يبث بما يجري عليه وينزل
بلاد بها الأموال من يد أهلها
تنزع غصبا والنفوس تقتل

ويقول عن السلطان عبد الحميد :

وذى سلطة لا يرتضي رأى ناصح
اذا قال قولا فهو لا يتبدل
أيأمر « ظل الله » في أرضه بما
نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفي مبرأ
ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا ، لا تغظ أمة اذا
تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وأيديك ان طالت فلا تغترر بها
فان يد الأيام منهن أطول

وقال معروف الرصافي :

سكنا من جهالتنا بقاعا
يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا أن نموت بها ارتياعا
وهبنا أمة هلكت ضياعا
تولى أمرها عبد الحميد

تنعم فى قصورك غير دار
أعاش الناس أم هم فى بوار
فانك لن تطالب باعتذار
وهب أن الممالك فى دمار
أليس بناء « يلدز » بالمشيد

ولما خلع السلطان عبد الحميد عمت الفرحة جميع البلاد العربية ، فقال فارس الخورى :

الله أكبر فالظلام قد علموا
لأى منقلب يقضى الأولى ظلموا
لقد هوى صرح الظلم وانتقضت
أركانه وتولت أهله النقم

وقال حافظ ابراهيم :

لم يغن عن عبد الحميد دهاؤه
ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحمه حصن ولم ترم دونه
دنانيره والأمر بالأمر حازبه
ولم يخفه فى أعين الحق مخدع
ولا نفق فى الأرض جم مساربه
وأصبح فى منفاه والجيش دونه
يغالب ذكرى ملكه ونغالبه
يناديه صوت الحق : ذق ما أذقتهم
فكل امرىء رهن بما هو كاسبه

مضى عهد الاستبداد واندك صرحه
وولت أفاعيه وماتت عقاربه

ويصف الرصافى هجوم الجيش الذى أسقط عبد الحميد :

وظل الجيش : جيش الله يشفى
بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفس الطاغين حتى
سقاهم من عدالته المنونا
وحطوا قصر « يلدز » من سماء
له فانحط أسفل سافلينا
هوى عبد الحميد به هويا
الى درك الملوك الظالمينا

وفى مصر يبرز من الأحداث وفظائع الاستعمار التى هزت الشعر وأثارت الشعراء حادث دنشواى ، قال شوقى :

يادنشواى على رباك سلام
ذهبت بأنس ربوعك الأيام
ياليت شعرى ، فى البروج حمائم
أم فى البروج منية وحمام

الى أن يقول فى المحاكمة « الصورية » :

ليت شعرى ، أتلك محكمة التف
تيش عادت أم عهد نيرون عادا

ايه يا مدره القضـــاء ويامن
ساد في غفلـــة الزمان وشـــادا
أنت جـــلادنا فلا تنس أنا
قد لبســـنا على يديك الحدادا

ويصف محمد محمد على سوء الحال فى بلاده (السودان) من جراء الاستعمار فيقول :

يبست معالمنـــا وما زلنا بأودية الشـــباب
نهوى الطعام تعف عن أمثـــاله بعض الكلاب
ذرة كلون الطين خير أدامها ملح مذاب
والماء يصبح أمنيات ان تجاوزنا السحاب
أما الثياب فانها خرق وللكفن الثياب
والنار وهى النـــار نســألها ونفرح اذ نجاب
فيظل بين بيوتنا كالنجم ينتقل الشـــهاب
تجتاحنـــا الأدواء والآفات تنصب انصـــباب

ويذكر جلاء جيوش المستعمرين عن السودان فيقول :

تيهى بلادى واذكرى أبنـــاءك الأسد الغضاب
الباذلين النفس ذودا عن رياضـــك واليباب
من جرعوا الأكواب يوم البذل من سم وصاب
حتى بدا فجر الهدى ، والأمر قر على نصاب

ويقرن الشـــاعر « محمـــد محمـــد على » الثورة على الاستعمار بالثورة على بعض الظواهر الفاسدة فى بلاده ، فيقول :

عم الظلام وغاب عن أكواخنا نور الكتاب
فغدت مباءة جنة وظلال شك وارتياب
وأساتنا قوم بضاعتهم من الطب الكذاب
متلثمون على الخنا صفر الوجوه من الحجاب
زعموا بأن الله آثرهم بدعوات تجاب
يصغى لها سمع السماء كأنها لحن الرباب
كم أفسدوا من صالح وجنوا على خود كعاب

والثورة الاخيرة تنال مساحة كبيرة من ديوان الشاعر « ألحان وأشجان » وفيها أصالة تنصع فى خلالها ملامح البيئة وتبدو خفاياها .

وقد ثار شعراء الجزائر على شعر الغزل ، فقال أحدهم (اللقانى) :

ألا فدع التغزل فى غوان
فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء
يكاد المرء يسمعه أنينا

ويعتز « محمد الحلوى » بالعروبة والاسلام ، فيرد على دعوى الفرنسيين قائلا :

زعموا أرضك الجزائر ملكا
لفرنسا تسلمته اغتناما
وتناسوا حضارة العرب الأمجاد فيها والضاد والاسلاما
زعموا أهلها رعايا وشاءوا
أن يسوقوا أبناءها أغناما

فاذا بالاحرار يمتشقون السيـ
ـف نارا ويكشفون اللثاما
ويشبونهـا جحيما على الرا
عى ليلقى من قبضتيه الزماما
أنزل الويل بالقرى وهى عزل
وغزاها ليظهر الاقداما
وانتصار الضلال والباطل الزا
هق شيء يقارب الأحلاما
ان للحق جولة تصرع البغى
فتمسى أعماره أياما

ومن استجابات شعراء العرب فى مصر لثورة الجزائر قصيدة لعبده بدوى بعنوان « فدائى مصرى يغنى » يقول فيها على لسان الفدائى :

سأذبحهم ظالما
وابنى بهم فوق أرضى هرم
نذرت دمى لقتال الطغا
ة على كل أفق ، على كل يم
فسر خلف أيامى المشرعا
ت لنرفع للموت هذا العلم
فأرض الجزائر فيها دمى
يراق ، وقد آن أن أنتقم

***

واذا كان الشعر يقصد الى مخاطبة الوجدان واثارة العواطف بحكم طبيعته ، فقد كان ما كتب من النثر فى مقاومة الطغيان والظلم أميل الى مخاطبة العقل بوصف الأحوال السيئة والدعوى الى التحرر ، اما مباشرة ، واما عن طريق العرض المثير ، وصف «محمد كرد على» حالة المجتمع السورى فى الحكم العثمانى ، قال فى كتابه « مذكرات محمد كرد على » : « كانت سياسة الولاة العثمانيين فى السبعينات والثمانيات من القرن التاسع عشر تقوم على النهب والسلب. كانت الدولة تعهد بولاية البلاد الى ولاة يدفعون اليها الخراج المقرر ويجبون لأنفسهم أضعافه ، فكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال . وكانت سياسة الترك مع العرب فى معظم أدوار التاريخ نمطا واحدا ، وهى ألا يعترفوا للعرب بشىء من الحقوق ، لئلا يرفعوا رءوسهم أمام غالبيهم وسادتهم . وكانت المركزية هى أشد ما عهد من نوعها ، وكان كل انسان يطلب اصلاحا فى أرجاء هذا الملك الواسع سواء أكان تركيا أم من عناصر الدولة يعامل أسوأ معاملة، فينفى ويسجن ويصادر ويقتل هو ومن يقول بقوله ، وأقل ما يتهمونه به هو أنه مارق فى الدين يدعى النبوة» .

ومن طريف ما كتب فى العلاقة بين العرب والترك قول أحمد فارس الشدياق :

« واذا اتفق فى نوادر الدهر أن تركيا وعربيا تماشيا ، أخذ العربى بالسنة المفروضة ، وهى أن يمشى عن يسار التركى متحشما خاشعا ، فأذا عطس التركى

قال له العربى : رحمك الله • واذا تنحنح قال : حرسك الله • واذا مخط قال : وقاك الله ، واذا عثر عثر الاخر معه اجلالا له وقال : نعشك الله » •

ويشبه هذا ما كتبه حافظ ابراهيم فى كتابه « ليالى سطيح » مستمدا من ذكرياته فى الجيش أيام كان ضابطا :

« ينظر المصرى الى الانجليزى ، وهو كأنه ينظر اليه بالنظارة المعظمة ، فيكبره رهبة واجلالا ، ويتضعضع لرؤيته ، وينظر اليه الانجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ، ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس الانجليزى فيه • وهو ان خاطبه فبلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو باشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر •

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط ، أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام لا كبار النفوس والأحلام ، فحالهم الى الرحمة أدعى منها الى اللوم • فلقد سقاهم ساقى السياسة الانجليزية كئوسا من منقوع الرعب ، فاذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى اذا صدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لامضاء ذلك الأمر ، فهو الى اجابة داعيهم أسرع من الصدى وهو على حفظ أمره أحرص من الفونوغراف على حفظ الصوت » •

وكان جمال الدين الافغانى أبرز الأصوات فى الدعوة لى المقاومة والتحرر ، ورنت كلمته «هبوا من غفلتم ، واصحوا من سكرتكم ، وعيشوا أحرارا سعداء» رنت هذه الكلمة فى الآذان وتردد صداها فى مختلف البلدان . فلبى دعوته والتف حوله وتتلمذ عليه أحرار المفكرين العرب ، مثل محمد عبده والكواكبى وعبد الله نديم وشكيب ارسلان وعبدالقادر المغربى وأديب اسحق . وكانت « العروة الوثقى » التى أصدرها فى باريس هو ومحمد عبده شرارة الثورة الفكرية والمقاومة الأدبية فى العالم العربى . كتب الافغانى عن مناهضة الغرب للشرق : « ان الغرب مناهض للشرق والروح الصليبية لم تبرح كامنة فى الصدور ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك ، وانها تحاول بكل الوسائل القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للاصلاح والنهضة » .

وكتب يشخص حالة الشرق والبلاد العربية :

« لقد جمعت ماتفرق من الفكر ولمت شعث التصور ، ونظرت الى الشرق وأهله ، واستوقفنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فايران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب من حجاز هو مهبط الوحى ، ومن يمن وتبابعتها ، ونجد والعراق وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودهاة الأمويين فيها والأندلس وحمرائها . وهكذا كل صقع ودولة من دول الاسلام ، وما آل اليه أمرهم . فخصصت جهاز دماغى

لتشخيص دائه وتحرى دوائه ، فوجدت أبرز أدوائه داء انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف ، فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيهم الى الخطر الغربى المحدق بهم ، والدعوة الى مكافحة الاستبداد ، وطلبت حكم الشورى وتحرير الدين مما أدخل عليه من فساد فى عقيدة الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر » .

وحمل مشعل المقاومة الفكرية بعد الأفغانى تلاميذه ، وكانت الثورة العرابية من ثمار غرسه ، وكان عبد الله نديم خطيبها وكاتبها . وواصل التلاميذ وتلاميذ التلاميذ المقاومة الفكرية والأدبية التى أشعل نارها الأستاذ (الافغانى ،) كتب محمد عبده يهاجم سياسة محمد على فى جريدة « المنار » :

« ما الذى صنع محمد على ؟ انه لم يستطع أن يحيى ولكنه استطاع أن يميت ، أمات معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر ، حتى اذا سحق الأحزاب القوية وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يدع منها رأسا يستثير فيه ضميرا ، واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلا الى جمع السلاح من الأهلين ، وأخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى ، حتى

انحط الكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الأموال وجمع العساكر بأى طريقة وعلى أى وجه ، فخنق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفسى ، لتصير البلاد المصرية جميعا اقطاعا واحدا له ولأولاده » .

وجاء بعد ذلك مصطفى كامل فخطب وكتب فى مقاومة الاستعمار والتعبير عن حبه للوطن والاشادة به ، وقد صور مأساة دنشواى هذا التصوير الذى خاطب فيه ضمير العالم المتمدين :

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، وأحاطت عساكر « الدارجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز . وقد تقدم اليهم ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة ، فرفضوا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل . وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق . وشنق رجل ، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملئون الفضاء بصرخاتهم الممزقة للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة . وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ساعة من الزمن . منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين

بدموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا ، وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين: لعنة الله على الظالمين» ٠ أن يوم ٢٨ يونية من عام ١٩٠٦ سيبقى فى التاريخ شؤما ونحسا ، وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية ٠

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشواى ٠ ولقد كان من المستحيل على أعداء الانجليز أن يصلوا الى النتيجة الحاليه بعد جهاد خمسين عاما ، ولكن من العجيب أن يكون الموجودون لها هم رجال من الانجليز ، وقد أنشأ المصريون عن حكم دنشواى أشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية الانسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للضمائر والنفوس ، انى جئت اليوم أسأل العالم المتمدين اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد » ٠

***

وقد شاركت الصحافة المصرية فى مقاومة الطغيان والظلم خير مقاومة ، فكانت مجالا لأقلام الأحرار من مصر ومن سائر البلاد العربية ، وتعرضت بذلك للمخاطر دون مبالاة بها

من ذلك أن نشرت صحيفة « الصاعقة » قصيدة بدون توقيع عقب رحلة قام بها الخديوى فى أوربا أولها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وإن طال المدى سيبيد
بعدت وثغر الناس بالبشر باسم
وعدت وحزن فى الفؤاد شديد

وجاء فيها عن أسرة محمد على :

رمتنا بكم (مقدونيا) فأصابنا
مصوب سهم بالبلاء شديد
فلما توليتم طغيتم وهكذا
اذا أصبح التركى وهو عميد
فكم سفكت منا دماء بريئة
وكم ضمنت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن البحر أشلاء جمة
تمزق أحشاء لها وكبود
وكم صار شمل فى العباد مشتتا
وخرب قصر فى البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا
له تحت أثقال القيود وئيد
فما قام منكم بالعدالة طارق
ولا ساد منكم بالبلاد سعيد

واعتقل صاحب « الصاعقة » ـ أحمد فؤاد ـ فقال فى التحقيق انه يأسف لتأخره فى نشرها ·· وكان ينوى أن ينشرها عدة مرات !

وعرف أن المنفلوطى هو قائل القصيدة فاعتقل ، واعترف بأنه قائلها ، وحكم عليه بالسجن ·

ومما حدث فى هذه المحاكمة أن وقف أحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » فى المحكمة يدافع عن نفسه قائلا : انى لست أول من قال بظلم العائلة الخديوية ، فان أشهر صحف مصر نشرت مرة أن الخديوى سعيد أراد يوما أن يجرب مدفعا جديدا ، فقال له أحد رجال الحاشية : هل يأمر مولانا بأن نتمهل ريثما يمر الناس ؟ فأجابه : اضرب النار ، نحن لم نتسلم الناس بالعدد !

وحكم كذلك على أحمد فؤاد بالسجن ·

ومن طريف ما يذكر أن الناس ألحوا فى طلب القصيدة والاطلاع عليها بعد أن صودرت «الصاعقة» التى نشرتها ، فتحايل بعض الصحفيين على نشرها بطريقة بارعة ، عهد الى أحد الشعراء بتشطيرها بحيث تظهر كأنها مدح للخديوى ·· كما يأتى :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
على فاجر هو جو الملوك يريد
لاضرابه بيت من اللؤم عامر
وملك وان طال المدى سيبيد

وبذلك أطلع على أصـــل القصيدة من لم يـــكن قد قرأها .

***

وقد نشأ فن القصص العربى الحديث مع المقاومة ، حمل السلاح وهو لا يزال طرى العود ، وسدد ضربات الى أعداء الشعب منذ فتح عينيه فرأى المظالم والاستغلال من قبل المســتعمرين والأجــانب ومن والاهم من أهــل البلاد .

كان ذلك فى بواكير القصـــص ، مثل أقاصــيص عبد الله نديم التى كتبها حوالى سنة ١٩٨٠ بجريدته « التنكيت والتبكيت » منها قصة بعنوان « مجلس طبى لمصاب بالافرنجى » وهى تعالج ـ بطريقة الرمز ـ قضية الدين الأجنبى الذى وقعت مصر فريسة له على يد الخديوى اسماعيل بسبب اسرافه ولهوه ، فتــدخل الأجانب فى شئونها بحجة هذا الدين ، وفرضوا عليها ما سمى بالمراقبة الثنائية وأنشىء صندوق الدين ، وحادث القصة يدور حول شاب يرمز الى مصر ، احتال عليه دجال يرمز الى الأجانب ، وخدعه وخدع أهله وأغراهم بالفتيات الحسان ، وكان من نصيب الشاب فتاة مريضة بالداء الافرنجى (الزهرى) .. « وما هى الا رشفة كأس حتى أصيب بالداء ، فاصفر لونه ، وارتجفت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عيناه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ،

وفطن بعض أهله لأمره ، فبكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ويركبون له الدواء ، لعله يبرأ من علته ويقف سريان الداء • وأقبل أهله متلهفين لمعرفة رأى الاطبـاء وسماع نصحهم ، فطلبوا اليهم الهدوء ومساعدتهم فى العناية به وحفظه من أن يصل اليه أجنبى غريب ، وأخذ أهله يعملون بمشورة الأطباء ويبذلون فى خدمته والمحـــافظة عليه ما وسعهم من الجهد » يرمز الكاتب بأهل الشاب المريض الى المصلحين فى الأمة •

ولما وقع حادث دنشواى شارك الفن القصصى الوليد فى المعركة •• فكتب محمود حقى رواية « عذراء دنشواى » وقد مزج فيها الواقع بالخيال ، وأدار الحوادث فيها على قصة حب بين شاب وفتاة من أهل القرية ، وصور فيها المأساة وما وقع فيها من اعتداء ومقاومة ، ومن محاكمة وقضاء ظالم •

ونذكر فى مجال المقاومة القصصية رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل من حيث ما تضمنته من تصوير الفوارق الطبقية سواء من الناحية العاطفية أو المعيشية •

وكذلك مسرحية « العشرة الطيبة » لمحمد تيمور التى صور فيها ظلم الحكم التركى وسخر منه •

ثم قصص كتبها بعض الرواد القصصيين مثل محمد تيمور فى قصة « فى القطار » ـ ١٩١٧ ـ التى تضمنتها

مجموعة « ما تراه العيون » وهى تمثل ثورة على ظالمى الفلاح من الشراكسة والأعيان ومطالبة لحقه فى التعليم والمعاملة الكريمة .

وقصة لعيسى عبيد عنوانها « مذكرات حكمت هانم » فى مجموعة « احسان هانم » التى صدرت سنة ١٩٢٢ - صور فيها ثورة ١٩١٩ وخاصة مظاهرات السيدات ووقوفهن أمام رصاص الانجليز فى الشوارع . وفى القصة نزاع عنيف بين رجلين أحدهما مسيحى والآخر مسلم ينتهى بالصلح والتآخى وسط الظواهر والعواطف الوطنية الرائعة .

وقصة لشحاته عبيد عنوانها « الصلاة » فى مجموعته « درس مؤلم » ١٩٢٢ - يتحدث فيها عن « سوق الاحسان الخيرى » الذى أقيم سنة ١٩٢٠ وبيعت فيه بالمزاد صورة لسعد زغلول بمبلغ ٧٢٠ جنيها تعبيرا عن تقدير الشعب لجهاد الزعيم الكبير .

وقد اقترنت نهضة القصة اذ ذاك بالاتجاه الواقعى والشعور بالشخصية المصرية والتعبير عنها ، فقد دعا روادها الى المذهب الواقعى وحملوا على الرومانسيين متهمين اياهم بالبعد عن حياة الشعب والايغال فى الأوهام والخيالات البعيدة مقلدين فى ذلك أدباء الغرب ، ومن ذلك قول شحاته عبيد فى مقدمة مجموعته :

« قد يزعم البعض أن ليس لدينا من الكتاب من يجارى كتاب الغرب فى تأليفهم ، وذلك لا ينكر ، غير أننا رأينا

أكثر من واحد من كتاب الناشئة الجديدة يترسم خطى كتاب الغرب ويحاول محاولة لو سوعد فيها لضارعهم بعد زمن يسير . »

وقد كانت الواقعية الهادفة ــ على النحو الذى نحاه كتابنا القصصيون الأوائل ــ أليق المذاهب الأدبية بالمقاومة فى مختلف صورها من هبات وطنية ومحاولات ثورية اجتماعية . أما الرومانسية التى غرق فيها أكثر الشعراء وبعض الكتاب فقد بعدت فى أكثر الأحيان عن المقاومة والكفاح الوطنى ، ومن نزل من الشعراء الرومانسيين الى ميدان الكفاح فانه نزل فى الوقت نفسه عن رومانسيته مثل أحمد زكى أبى شادى وأبى القاسم الشابى وعلى محمود طه ــ والرومانسية حقا ثورة ، ولكنها ثورة تدعو الى حرية الفرد وتحرره من التقليد وتحقيق ذاته المتجهة الى التحليق فى العوالم البعيدة عن واقع الناس .

٢ ــ القومية العربية

كانت القومية العربية وعلاقات الأخوة بين العرب والدعوة الى وحدتهم وترابطهم ، مصاحبة غالبا لحركات المقاومة فى كل بلد عربى ، كما لا تزال ، وكان الشعراء ــ كما لا يزالون ــ يتجاوبون من أقطار الوطن العربى الكبير بالتعبير عن الآلام والآمال ، وكان كل حادث فى أى بلد

يجد صداه بل أثره العميق فى شعر الشعراء وكتابة الكتاب فى سائر البلدان .

ولو ذهبنا نستقصى ما قيل فى ذلك من الشعر وما كتب من النثر لطال بنا المقام دون أن نستطيع الاحاطة الشاملة أو القريبة من الشاملة ، ولكن هذا لا يمنع من ايراد بعض الأمثلة .

قال أحمد شوقى فى القصيدة التى حيا بها مبايعيه بامارة الشعر من أقطار العروبة سنة ١٩٢٧ :

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر
ح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح
لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد
تتنزى الليوث فى قضبانه
نحن فى الفكر بالديار سواء
كلنا مشفق على أوطانه

وقال على الجارم :

تذوب حشاشات العواصم حسرة
اذا دميت من كف بغداد أصبع
ولو صدعت فى سفح لبنان صخرة
لدك ذرا الاهرام هذا التصدع

ولو « بردى » أنت لخطب مياهه

لسالت بوادى النيل للنيل أدمع

ولو مس « رضوى » عاصف الريح مرة

لبانت له أكبادنا تتقطع

وقال عبد المحسن الكاظمى :

أيها القوم كلنا اليوم عرب

والى العرب يطمح العالمونا

بعضنا فى الخطوب عون لبعض

ان أردنا على الخطوب معينا

فعراقينا متى اشتد خطب

رد سورينا الشدائد لينا

أيها العرب بادروا واستردوا

مجدكم من مخالب الغاصبينا

انما الشام والعراق ومصر

أخوات وان تفرقن حينا

وقال وهو بمصر :

أحن اذا قيل العراق وأنثنى

وأشهق ان قيل الشآم وأزفر

وأطرق ان قيل الحجاز على جوى

وأعجب اذ ما قيل مصر وأبهر

جميع بلاد العرب فى القدر واحد

اذا وزنوا البلدان يوما وقدروا

اذا نحن وحدنا القلوب فلم نبل

اذا ما غدت أجسامنا تتبعثر

وما نزعات العرب مرأى لحالم

يعبر فيها ما يشاء المعبر

ولكنها آمال قوم تضامنوا

بنصر ومن يمشى مع الله ينصر

وما بك يا مصر ببغداد نازل

وفى جلق أدهى وفى القدس أجسم

هناك أحشاء تذوب وهاهنا

قلوب متى حركتها تتضرم

اذا ما توالى جرحنا وتعذرت

مراهمه فالجرح للجرح مرهم

وقال حافظ ابراهيم :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب

هنا العلا وهناك المجد والحسب

ركنان تلشرق لازالت ربوعهما

قلب الهلال عليها خافق يجب

الى أن يقول :

اذا ألمت بوادى النيل نازلة

باتت لها راسيات الشام تضطرب

وان دعا فى ثرى الأهرام ذو ألم

أجابه فى ذرا لبنان منتحب

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم

فصافحوها تصافح نفسها العرب

وفى قصيدة للشاعر القروى قالها من المهجر فى حادث دنشواى يقول فى آخرها عن الحبل الذى شنق به الشهداء :

أكرم بحبل غدا للعرب رابطة

وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وقال محمد باقر الشبيبى فى قصيدة يرثى بها والده ويذكر أمانيه فى استقلال الأوطان العربية :

غدت هذه الأوطان وهى مهيضة

تخبط يعروها من اليأس ما يعرو

دعوت لها أن تستقل بأمرها

وتصبح لا نهى عليها ولا أمر

وحذرتها أن تستباح طليقة

وأن يتولاها ليرهقها الأسر

منى لك شاءت أن تنال حقوقها

دمشق وأن تحظى بآمالها مصر

وكنت اذا مرت بلبنان هزة

هتفت ليحيا الأرز وليسلم الثغر

مواطن يؤذينا تفرق شملها

ويزعجنا شطر هنا وهنا شطر

تقربنــا من بعضــنا وتلفنا
وشــائج من عمر الزمان لها عمر

وما فصــلت بين القلوب حواجز
أقيمت ولم يقدر على فصلها البحر

اذا بذروا البغضــاء جاء حصــادهم
هشــيما فما أجدى ولا نفع البذر

وقد أخفقت محاولات التجزئة وبث الأفكار المعادية لرابطة العروبة ، ومنها المجد والحضارة الفرعونية والفينيقية وما الى ذلك من محاولات الاعتزاز القومى الانفصالى التى كان يلقيها الاســتعمار وأعداء العــروبة فى آذان بعض الوطنيين هنا وهناك ، كالسودنة فى السودان واللبننة فى لبنان ، وبلغت القحة بالاستعمار أن حاول اقناع الجزائريين بأن الجزائر جزء من فرنسا . واقتنع العرب بأن كل ذلك ما هو الا أســاليب ووســائل لتفتيت الكتلة العربية وتحويلها الى « لقيمات » يسهل ابتلاعها على الطامعين فيها .

وقاوم الأدب تلك المحاولات ، وأشــهر فى وجهها أسلحته ، من أشعار كما رأينا فيما سبق ، ومن كتابات مختلفة ، ومن قصص ومسرحيات .

وكانت الكتابات أقدر الاشكال الأدبية على مناقشة الأفكار ودحض الأباطيل ، وتصوير الواقع ، وبيان العناصر والمقومات ، ورسم الخطط لتحقيق الأهداف .

بدأت الكتابة فى هذا المجال بتنفيذ الدعوات المحلية

التى تولاها بعض المفكرين المخدوعين والمضللين ، ومن الانصاف أن نذكر أن بعض هذه الدعوات كانت تقصد الى التحرر من التبعية التركية دون قصد الى الانفصال عن الأمة العربية .

ويحدثنا « أنيس المقدسى » فى كتابه « العواصف القومية » عن نشوء فكرة العروبة فى الأدب العرّبى الحديث فيقول :

« لا أعرف فى تاريخ أدبنا الحديث فكرة تداولتها الألسن والأقلام ، وتقلبت معانيها مع الأيام ، كتلك التى تتجلى لنا فى لفظة خماسية الأحرف ظهرت فى أدبنا أواخر القرن الماضى ، فكانت فيه أشبه ببذرة ألقيت فى تربة جيدة ، فنمت ، ومازالت تنمو فى الخمسين سنة الأخيرة ، حتى أصبحت الآن دوحة عظيمة وارفة الظلال - يستظل بها فى الشرق العربى بضع دول وعشرات الملايين من الناس . هذه اللفظة الخماسية ، بل هذه الدوحة الفكرية العظيمة هى « العروبة » .

« ولدت هذه الفكرة فى الأدب العربى الحديث بين فئة من الأدباء الذين حملهم بغضهم للحكم التركى وتألمهم من حالة الشعب العربى على اثارة الشعور العنصرى بمثل صرخة ابراهيم اليازجى ابان شبابه :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طما السيل حتى غاصت الركب

أو بمثل الدعوة الجريئة التى قام بها عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه أم القرى حيث يدعو الى خلافة عربية مركزها جزيرة العرب .

« وقد ظلت تلك الفكرة ضعيفة ضيقة النطاق حتى أوائل هذا القرن تغمرها فكرة الجامعة العثمانية ، فلما أعلن الدستور العثمانى ١٩٠٨ وكان ماكان من مشادة بين الترك والعرب ، ومحاولة حزب الاتحاد والترقى يومئذ تتريك السلطة ، تيقظت القومية ، فتعالت أصوات المتحمسين شعرا ونثرا تفاخر بأمجاد العرب فى التاريخ » .

وكتب الدكتور محمود عزمى يتساءل عن أى الروابط نتمسك بها ونسعى اليها : الرابطة الشرقية ، أم الاسلامية ، أم العربية ، وقال فى تحليل علمى رائد :

« الشرقية فى نظرى ايهام لا يمكن الاستناد فى تحديده الى قاعدة علمية ، وخيال لا يتكىء على واقع ، ومحاولة لن يكون نصيبها غير الفشل بما يقتضيه النظر الى القضية من تشتت للجهود وقسر للعقول على مالا قبل لها بفهمه .

« والرابطة العربية فى نظرى أمتن الروابط التى يصح أن تقوم مساعينا فى سبيل التكييف الجديد المتمشى مع روح العصر ، بل انها الرابطة الوحيدة التى يجب أن يستند اليها تطورنا المحتوم .

« ومعنى الرابطة العربية أنها تلك التى تستند الى

حوادث التاريخ التى وحدت بين نوع التفكير ونوع الحياة وأساليب الحكم وقواعد الاقتصاد فى تلك الكتلة المتصلة من المحيط الاطلنطى الى الخليج الفارسى .

« فالثقافة الغالبة فى تلك الكتلة جميعـــا انما هى ثقافة اللغة العربية التى ينطق بها الأهلون ، والحضـــارة الغالبة فى تلك الكتلة نفسها انما هى الحضارة الاسلامية ، يأخذ بها فى الحياة اليومية وفى السلوك الاجتماعى أهل تلك الكتلة كلهم ، مهما اختلفوا دينا أو عقيدة ، والمطمح الأعلى الذى يشخصـــون اليه جميعـــا انمـــا هو مطمع الاستقلال والتحرر . والثقافة والحضارة والمطمح الأعلى انما هى العناصر الفعالة فى توحيد الاتجاه ، وهى انما تقوم على واقع جغرافى وعلى واقع اجتماعى يؤيدهما واقع روحى عظيم أيضا ، وهى أمـور لم تتوافر للرابطة الشرقية ولا للرابطة الاسلامية » .

وكتب عبد الرحمن عـــــزام فى مجلة الهلال سنة ١٩٣٤ بعنوان « الامبراطورية العربية » فقال :

« ليس بين العـــرب وبين بعثهم مرة أخـرى الا أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يؤمنوا بوجودهم ، فقد افتتنوا بعظمة غيرهم حتى نســـوا ذلك الوجود . والأمة العربية موجودة بصفات محددة وهيئة مستقرة ، فهى مخلوق حى كامل الخلقة . ولقد أتيح لى أن أخالط الشعوب العربية فى افريقيا وآسيا ، وبالرغم من الحدود المصطنعة التى تفصل هذه الشعوب ، ومن الاستعمار الأوربى الذى يعمل على حل عرا الوحدة فيها ،

بل على الرغم من انحدار دمائها من الأصول السامية والحامية ، فان الامة العربية الحديثة هى وحدة اجتماعية وثقافية وليدة تاريخ مشترك ، لها خواصها الظاهرة والخفية التى تميزها عن غيرها من الشعوب والأمم ، وهى بحالتها الراهنة - التى هى نتيجة لفعل الأربعة عشر قرنا الماضية - جديرة بأن تحتل مكانها بين أمم العالم العظيمة الموحدة .

« ففى برقة أو نجد ، وعلى بحر العرب أو على الفرات ، وفى لبنان أو فى الأطلس أمة ذات مزاج مشترك ، لها عقيدتها ولسانها وعرفها ، تجمعها الكليات وان اختلفت الجزئيات . داؤها فى العراق والشام ومصر والسودان والمغرب هى الفتنة فقد افتتنوا جميعا بعظمة الغير ، ونسوا أنفسهم . ودواؤها الدعوة الى الايمان بالذات ، والمثل يضربه أفذاذ الرجال يثبتون به الايمان .

« نحن فى عصر (الكارتل والترصت) وقد مضى زمن الدكان الصغير ، فهل يظن العراقيون أو الشاميون أو المصريون أنهم يستطيعون الوصول الى حياة محترمة بغير الوحدة ؟ وليذكر قادة الرأى وأهل البصر أن لا وجود للدولة قبل النهضة ، ولا بقاء لها بغير الأمن والسلامة ، ولا أمن فى العصر الحاضر بغير القوى الكثيفة .

« وقد من الله على مصر الحديثة بأن بسط حدودها شرقا وغربا فجعلها قلبا فى جسم أمة عظيمة تمتد من الخليج الفارسى الى المحيط الأطلنطى ، فهى فى وسط اخوة

فى العقيدة والدم واللغة ، فيجب علينا أن تستفيد مما أحدثته العصور الاسلامية وأن تكون فى طليعة الدعاة الى الوحدة » .

ويدعو عبد الرحمن شهبندر الى « عصبة أمم عربية » فيقول فى مقال بمجلة الهلال سنة ١٩٣٦ :

« لا غرو أننا نجد الشعوب العربية التى شعرت بالروابط الثقافية والاجتماعية الأساسية التى تربط بعضها ببعض تهب من رقدتها فتجد فى هذه الروابط من عوامل التعاون والتضافر والاتحاد مايعد فاتحة انقلاب سياسى خطير فى القرن العشرين ، وقد تجلى هذا الشعور بعض التجلى بما فعله أبناء العرب لفلسطين على مافيه من نقص وابطاء ، وهذه الخطوة من الخطورة بحيث تأتى فى الدرجة الثانية فقط من البطولة التى أبداها الفلسطينيون مع اخوانهم الذين أتوا لنجدتهم من سورية ومن العراق . ماذا يحدث لو هبت هذه الروح التى نجدها فى فلسطين اليوم كما وجدناها فى العراق ١٩٢٠ وفى سورية ١٩٢٥ ، فعمت بلدان العالم العربى ، وظهرت البطولة الكامنة فيه كما ظهرت فى نابلس والخليل والقدس ويافا وحيفا وغزة وبئر السبع وسائر البقاع التى سيردد ذكرها الأحفاد كما يرددون ذكر معارك المزرعة والغوطة والحاجر فى سورية الشمالية ؟ فاستقلال العالم العربى استقلالا منفردا محليا ينتهى عاجلا أو آجلا الى نظام يشبه نظام عصبة أمم شرقية عربية مؤلفة من بلدانه » .

وظهرت مجلة « الرسالة » سنة ١٩٣٢ تحمل شعار الأصالة العربية والجمع بين الشرق والغرب على هدى وبصيرة ، وعلى صفحاتها تلتقى الأقلام من مختلف البلاد العربية ، وتتجه جميعا الى مانسميه الآن بالعمل العربى الواحد فى مجال الأدب والفكر ، ومن أبرز كتابها فى هذا الميدان صاحبها أحمد حسن الزيات وعبد الوهاب عزام وابراهيم عبد القادر المازنى ومصطفى صادق الرافعى وزكى مبارك • وينضم اليهم الكاتب العربى « ساطع الحصرى » الذى وقف قلمه وفكره على الدعوة الى القومية العربية بطريقة علمية ، كتب فى الرسالة كما كتب فى الهلال ، وألف عددا من الكتب ، منها كتاب « آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية » وكتاب « العروبة بين دعاتها وخصومها » وكان رائدا لمن ألف وكتب بعده فى القومية العربية بما بينه من عناصرها ومقوماتها • ومن أهم آرائه أن اللغة هى أهم رابط بين العرب ، وأن الأمة العربية تستمد قوتها من تاريخها القومى وأن عودة الشعور القومى الى الأمم المغلوبة على أمرها لا يتم الا باستعادة الذكريات التاريخية ، وأن الحدود بين البلاد العربية ليست طبيعية وانما هى من صنع الاستعمار •

كتب فى ذلك يقول :

« جميع الدول التى يتكلم أهلها باللغة العربية عربية ، فالعرب أمة واحدة ، أما الدول والدويلات والامارات والمشيخات التى تنقسم اليها الأمة العربية

الآن فهى وليدة الظروف السياسية الطارئة ، وعلى كل عربى أن يسعى لازالتهـــا لتتحد الأمة العربيـــة فى دولة واحدة قوية راقية عصرية ، ان العروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة وحدهم ولا بالمسلمين وحدهم ، انها تشمل كل من ينتسب الى البلاد العربية ، مصريا أو كويتيا أو مراكشيا ، مسلما أو مسيحيا ، سنيا أو جعفريا أو درزيا ، كاثوليكيا أو أرثوذكسيا أو بروستانتيا » .

وساطع الحصرى بذلك يضع مفهوما جديدا متطورا لمدلول « العروبة » .

وكتب يتعجب من بقاء العرب على تفرقهم وبقاء حدود بلادهم كما هى بعد التحرر من الاستعمار ، فقال :

« ما أغربنا نحن العـــرب ، لقـد ثرنا على الانجليز والفرنسيين ، ثرنا على من استولى على بلادنا واستعبدنا ، وأثرنا الثورات الحمراء والبيضـــاء عدة عقود من السنين ، وقاسينا فى سبيل ذلك ألوانا من العذاب والتضحيات ، ولكننا عندما تحررنا من نير كل هؤلاء أخذنا نقدس الحدود التى كانوا قد أقاموها فى بلادنا بعد أن قطعوا أوصالها ، ونسينا أن تلك الحدود انما كانت هى الحبس الانفرادى والاقامة الجبرية التى فرضوها علينا ، لاضعافنا وعزل قوى بعضنا عن أن تتحد بالقوى الأخرى » .

وكتب عن أهمية تاريخ الأمة العـــربية فى حياتها ومستقبلها ، فقال :

« ان الأمة المحكومة التى تحـــافظ على نفسها تشبه

السجين الذى يمسك بيده مفتاح باب سجنه ، انما تبقى حية مابقيت محافظة على لغتها • ان حياة الأمة تقوم بلغتها بوجه عام • أما الموت بالنسبة للأمة فليس فى حقيقة الأمر الا فى الحرمان من اللغة الخاصة • ان الأمة التى تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها وتصبح مستعبدة لها ، ولكنها لا تفقد حياتها ما بقيت محافظة على لغتها •

« يحق لنا أن نقول ان اهمال التاريخ القومى يكون بمثابة الاستسلام للذهول والكرى ، أما نسيان التاريخ المذكور فيكون بمثابة فقدان الشعور • هذه حقيقة يعرفها جيدا رجال الحكم والاستعمار ، ويستفيدون منها دائما ، فهم عندما يستولون على أمة من الأمم يبذلون قصارى جهدهم لابعاد ذاكرتها عن تاريخها الخاص • انهم يتوسلون بكل الوسائل الممكنة لتخدير الأمة وتنويمها عن طريق الحيلولة بينها وبين تاريخها القومى • انهم يعرفون جيدا أن الشعور القومى عند الأمم المحكومة يأخذ فى الخمود والتضاؤل كلما أسدل النسيان سدوله على التاريخ القومى الى أن ينعدم تماما بنسيان التاريخ الخاص نسيانا تاما • ان الماضى منبع فياض للمستقبل ، والتاريخ قوة مهمة فى حياة الأمة • ان عودة الشعور القومى الى مثل هذه الأمم لا يتم الا باستعادة الذكريات التاريخية • ان حركات النهوض والانبعاث وجهود النهوض والاستقلال والاتحاد عند تلك الأمم تبدأ بوجه عام بتذكر الماضى واستلهام التاريخ • ان

كل الامم التى كانت مغلوبة على أمرها ثم نهضت وتخلصت من ربقة الاستبداد تغـــذت بذكريات الاستقلال المفقود ، والتوقان الى السؤدد والمجد يبــدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الايمان بمستقبل الأمة يستمد قوة من الاعتقـــاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شـــدة وحماسة بتجـــدد ذكريات الوحدة المضاعفة ·

« ان التاريخ يكون مفيدا عندما يفرغ فى شكل « قوة دافعة » تحركنا الى الأمام غـــير أنه يصبح مضرا اذا أخذ بشـــكل قوة جاذبة تدعونا الى العودة الى الوراء فلا يجوز لنا أن نعتبر الماضى هدفا نتوجه نحوه ونسعى للعودة اليه بل يجب أن نجعل منه « نقطة استناد » نستند بها فى سيرنا الى الامام » ·

..

ودخل **الانتاج القصصى** الى مجال القومية العربية ، نذكر منه قصة « قـوس قزح » للكاتب اللبنانى شكيب الجابرى ، وقد صور فيها الثورة العربية سنة ١٩١٦ التى كانت ترمى الى التحرر من النفوذ التركى وانشـــاء دوله عربية · وقصة « الرغيف » للكاتب اللبنانى توفيق يوسف عواد ، وقد صور فيها اليقظة العربية وبعث الروح العربى على مستوى يشمل مختلف البلاد العربية ، مع الدعوة الى الوحدة بينها · وقصة « أصابعنا التى تحترق » للكاتب اللبنانى سهيل ادريس ، وهو يقاوم فيها الاتجاه الاقليمى

الذى سماه « لبننة » ويرى فى بطل القصة أن صالح العرب فى تكتلهم وأن القضية العربية واحدة وأنه يجدر بأدباء العرب أن ينافحوا عنها فى كل مكان .

وكتب يوسف السباعى روايتين : « جفت الدموع » و « ليل له آخر » تدور حوادثهما بين مصر وسوريا فى عهد الوحدة بين الاقليمين وعقب الانفصال وتصور الثانية التيارات السياسية فى الفترة التى تمت فيها الوحدة ، وتحلل العوامل المعوقة التى أدت الى الانفصال .

***

وقد وقعت ببعض البلاد العربية أحداث ومآس ، مثل اغتصاب الصهيونية لفلسطين والحوادث الدامية الفاجعة التى لابست ذلك ، ومثل فظائع الاستعمار فى الجزائر ،ومثل الاعتداء الثلاثى على بور سعيد ، وأخيرا عدوان اسرائيل بمعاونة الامبريالية على الأراضى العربية فى ٥ يونية (حزيران) سنة ١٩٦٧ .

فكانت هذه الأحداث تهز الوجدان العربى وتثير كوامن المشاعر المشتركة ، ويشعر العرب ازاءها بالحاجة الى الوحدة والتجمع لدرء خطر العدو الخارجى ، فكان ذلك معززا لفكرة العروبة الجامعة وقاضيا على محاولات التفرقة ، وكان براهين عملية تدحض الأفكار التى روجها الاستعمار وتلقاها عنه بعض مفكرى العرب الذين فتنوا بالغرب تلك الأفكار المعادية لرابطة العروبة ، ومنها المجد القديم فى الفرعونية والفينيقية ، وما الى ذلك من محاولات بث الاعتزاز الاقليمى

الانفصالى · وهكذا نجد أن القومية العربية لا يغذيها شىء مثل ما يغذيها أعداؤها ·· فكل ما يبذلونه لمحاربتها يقويها ··

وكان الادباء العرب فى كل مكان ينفعلون بتلك الأحداث ـ سواء أكانوا من أهل البلد الذى تقع به أم من غيره ـ وتتفجر عواطفهم نحوها شعرا ونثرا · ومن الناحية الأدبية نرى تلك المآسى نثرى الأدب المقاوم وتوحى بالصدق فى التعبير ·

ولو ذهبنا نتقصى الأدب المقاوم لتلك الأحداث لطال المقام وجاوز الحد المرسوم لهذا الكتيب ، ولكننا نرى أن نخص فلسطين والأدب المنافح عنها بفصل فى أواخر هذا الكتاب ، لما لها من وضع خاص ، اذ جمعت العرب حول اهتمام مشترك كبير ، وقضيتها لا تزال قائمة ، والكفاح فيها دائر على أشده ، وهو الآن يتمثل فى المقاومة الداخلية : مقاومة الفدائيين فى الأرض المحتلة ، ويصاحبه ويغذيه أدب مقاوم جديد ينبعث من داخله ·

٣ ـ انتقاص القيم العربية

حاول الاستعمار وصنائعه انتقاص القيم العربية لكى يحمل العرب على التخلى عنها والارتباط التام أو الاندماج فى الحضارة الغربية ·

وقابل الأدباء ذلك بالمناقشة والتفنيد تارة ، وبالاشادة بالأصالة العربية والفكر الاسلامى تارة أخرى ، وألفت الكتب

عن أعلام العروبة والاسلام ، وبعث التراث الفكرى وعكف عليه المحققون والدارسون يحققون نصوصه ويستخرجون نفائسه ٠

وقد قاد حملة الانتقـــاص المستشرقون الذين وجههم الاستعمار الاوربى الى هذه الوجهة حتى يشككوا العرب فى قوميتهم ودينهم ٠ حقا ان بعض المستشرقين كانوا مخلصين للبحث والدراسة فكانت نظرتهم الى الادب العربى والتاريخ الاسلامى نظرة علمية وكانت دراساتهم وجهودهم مفيدة ، ولكن هؤلاء كانوا قلة الى جانب الكثرة المغرضة ٠ واستغل هؤلاء المغرضون الضعف والتأخر فى المجتمعات العربية ، فنسبوا ما فيها من نقائص وعيوب الى الجنس تارة والى الدين تارة أخرى ٠ ومن ذلك النظرية التى نادى بها جماعة منهم: نظرية الســامية والآرية ، وبمقتضاهـــا زعموا أن العرب متأخرون فى العلوم والفنون والآداب والمدنية بحكم الجنس والبيئة ، وزعموا كذلك أن الاسلام يعادى العلم ورد عليهم كثيرون من أدباء العرب ومفكريهم ، وفندوا دعاواهم وبينوا **أن التأخر والعيوب والنقائص إنما هى من أثر الحكام الجهلاء** المستبدين ، ومن تفريط العرب والمســـلمين فى عقائدهم ونظمهم ، ولو أنهم رجعوا الى هذه العقـــائد والنظم التى سادوا بها العالم فى القرون الوسطى لكان الشـــأن غير الشأن ٠

ومن الأوائل الذين تصدوا للرد على أولئك المستشرقين محمد عبده وجمال الدين الافغانى وقاسم أمين ٠ ويحدثنـا

الدكتور زكى نجيب محمود ـ فى بحث ألقاه فى مؤتمـر الكتاب الآسيويين والافريقيين ببيروت سنه ١٩٦٧ ـ عن موقف قاسم أمين مع أحد الأوربيين المتهجمين على المصريين ، وأن هذا الموقف جر قاسم أمين الى تأليف كتابيه المشهورين : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » بعد أن رد على المتهجم فى كتاب عنوانه « المصريون » يقول الدكتور زكى نجيب : « ان داركور قد أصدر كتابا سنة ١٨٨٢ عن المصريين ، يصفهم فيه بالتأخر ، ويأخذ عليهم حجبهم للنساء عن موارد العلم وميادين الحياة ، ثم لا يكتفى بذلك ، بل يربط هـــذا كله بالعقيدة الاسلامية ، فرد عليه قاسم أمين سنة ١٨٩٤ فى كتاب عنوانه « المصريون » مدافعا عن وطنه وأهله ، معترفا بما قد شاب ذلك الوطن وأهله من عيوب محال أن ترد الى الاسلام ، وانما هى أثر مباشر للحكم الفاسد الذى نكبت به البلاد أمدا طويلا من الدهر ، وقد كتب قاسم أمين كتابه هذا بالفرنسية ليتاح لمن قرأ داركور من الفرنســـيين أن يطالعوا الرد عليه ، اقرأ هذه العبارة ـ مثلا ـ من رده على الدوق داركور ؛ لترى كيف رد التهمة عن أهله ردا يوقع خصمه فيما هو أشنع منها : « يظهر أن مسيو داركور ينعى علينا عدم وجود الفوارق الاجتماعية ، ويعيبنا لأنه ليس من طوائفنا طائفة الأشراف بالمولد أو بغير المولد ، وكل السكان الذين يقيمون فى بلد اسلامى هم متساوون أمام القانون بلا تفرقة بين أجناسهم ودياناتهم » . ثم يقول الدكتور زكى نجيب محمود :

« على أن هذه المعركة القلمية بين الدعوى ونقيضها، قد حركت الكاتب العربي الى النهوض بعبء الاصلاح فى ميدانه ، حتى لا نغمض العين على نقص واضح ، فكتب كتابه العظيم « تحرير المرأة » (١٨٩٩) وأعقبه بآخر « المرأة الجديدة » (١٩٠٠) ليرد به على ما قد وجه الى كتابه الأول من نقد » ٠

ويحدثنا الدكتور صلاح الدين المنجد ـ فى كتابه « المنتقى من دراسات المستشرقين » عن جهود المستشرقين وأغراضهم وأخطائهم ، فيقول : « لقد نشر المستشرقون مئات من كتبنا القديمة ، ووضعوا مئات من الدراسات عن تاريخنا فيسروا لنا بنشرهم العلمى لكتب كثيرة أن نطلع عليها وننتفع بها ٠ وكان هؤلاء المسشرقون ضروبا ثلاثة : فضرب لم يملك ناصية اللغة فأخطأ فى نشر الكتب وفى فهم النصوص ، ولكنه حفل بأمور شكلية لا فائدة لنا منها ، وضرب أثرت فى دراساتهم مآرب السياسة والتعصب للدين فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم وبما يسعون اليه ، ولعل هذا الضرب هو الذى دفع الشرقيين من المسلمين والعرب أن يرتابوا بالمستشرقين جميعا لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذى يسمو بالانسان لاذلال الانسان واستعباده أو الطعن على تراثه القديم بغير الحق ٠ ولكن فريقا ثالثا أوتى الكثير من سعة العلم والتمكن من اللغة والاخلاص للبحث والتحرر والانصاف ، فكانت دراساتهم مثمرة » ٠

ومن أنواع القصور التى رمى بها المستشرقون الجنس

العربى ما زعمه الفيلسوف الفرنسى « ارنست رينان » من ان العقل السامى يميـــل بطبيعتــه الى التجريد ولا ينزع الى التجسيم ، وأن البيئة الصحراوية التى عاش فيها العرب لم تكن غنية بالمناظر المتنوعة ، فلم تمنحهم المخيلة الخالقــه المبتكرة التى تتوافر للغربيين ، وبنى على هذا الزعم ان العرب لم ينتجوا قصصا .

وقد فند ذلك الزعم كثير من الدارسين العرب ، منهم الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « الادب العربى الحديث » الذى ناقش فيه هـــذا الرأى ، وأثبت بطلان النظرية التى تقول بتخلف جنس من البشر عن جنس آخر لطبيعة فيه .

وقد اعتنق بعض الدارسين عندنا ما قال به «رينان» ومن الناحية الأخرى نجد بعض المستشرقين الصادقين مثل الاستاذ « جب » يبرز الجانب القصصى فى أدب العرب ويتحدث عن روائع منه ويبين أثره فى الأدب الغربى ، وذلك فى كتابه « تراث الاسلام » .

ومن الدارسين العرب الذين عنوا بابراز الناحيـــة القصصية فى أدب العرب الدكتـــور محمد غنيمى هـــلال الذى درس فى كتابه « الادب المقارن » بعـض الأعمـــال القصصية العربية وتأثيرها فى الآداب الاوربية ، مثل ألف ليلة وليلة والمقامات ، وقصة « حى بن يقظان » ، كما درس بعض القصص الغربية وتأثرها بالادب العربى ، مثل قصص الحب والفروسية ، وقصص الشطار الأسبانية .

ومنهم الاستاذ فاروق خورشيد الذى أخذ - بشدة وبحق - على الدارسين للأدب العربى اهمالهم للناحيه القصصية فيه ، وافترض وجود ألوان مختلفة من القصص فى تراثنا العربى ، وأثبت افتراضه بكثير من الادله والنصوص القصصية ، وخاصة ما ورد بكتابين فى القصص الجاهلى دونا فى العصر الاسلامى ، هما كتاب « التيجان فى ملوك حمير » لوهب بن منبه ، وكتاب « أخبار ملوك اليمن» لعبيد بن شريه الجرهمى . وذلك فى كتابه « فن الروايه العربية » .

ويفصل الاستاذ محمود تيمور المسألة التفصيل الآتى فى كتابه « القصص فى أدب العرب » :

« سارعنا الى الانكار على الأدب العربى أن فيه قصة ، وما كان ذلك الانكار لأننا وضعنا نصب أعيننا القصة الغربية فى صياغتها الخاصة بها ، واطارها المرسوم لها ، ورجعنا نتخذها المقياس والميزان ، وفتشنا عن أمثالها فى أدبنا العربى ، فاذا هو قد خلا منها أو يكاد ، وشد ما أخطأنا فى هذا الوزن والقياس ، فللأدب العربى قصص ذو صبغة خاصه به ، واطار مرسوم له » .

وقد اعتنق آراء المستشرقين وغيرهم من الأوربيين ، بعض الأدباء من العرب ، فرددوا آراءهم ودافعوا عنهم ، ودعا المغالون منهم الى الحضارة الاوربية وأخذها بحذافيرها ونبذ كل ما هو عربى وشرقى .. وهذا هو ما رمى اليه الاستعمار

واستخدم الاستشراق فى تحقيقه ، ووقع فيه قوم منا خيل اليهم أنه التقدم وتحرر الفكر ، ولم يكونوا فى الواقع الا ناقلين تابعين ٠

وقد انبرى لهؤلاء من قاوموهم بعنف وشدة ، اذ رأوا الخطر منهم أفدح من خطر الأجانب ٠

ولم يخل الحال من بعض المدافعين الجامدين الذين يدفعهم التعصب الأعمى الى الشتائم والمهاترات واسناد النقائص والرذائل كلها الى الحضارات الغربية والعلم الغربى جملة ٠

وكتب كثير فى مقارنة الحضارة الغربية بالعربية ٠ وممن كتب فى ذلك ميخائيل نعيمة قال : « من أكمل كمالات العربية وأسماها تمييزها ما بين « البصيرة » و « البصر » وجعلها الكلمتين فرعين من أرومة واحدة ، بل توأمين من بطن واحد ، ولكن هذا الفرع غير هذا ، ولكن هذا التوأم غير ذلك ، فكأنهما واحد وليسا بواحد ٠ والآن اذا قلت لكم : ان الشرق هو بصيرة العالم وان الغرب هو بصره فما اخالكم تسيئون فهم ما أقول ، فتحسبون أن الشرق كله بصيرة لا بصر ، وأن الغرب كله بصر ولا بصيرة ٠ ذاك يعنى تجريدكم الشرق من كل حس خارجى وتجريدكم الغرب من كل شعور باطنى ، وهو غير الواقع وغير المعقول ، وجل ما أرمى اليه هو القول بأن زبدة الشرق فى بصيرته ، وزبدة الغرب فى بصره ، وأن الاثنين توأمان متلاصقان يبدوان كأنهما واحد ، ولكنهما غير واحد ٠ لقد اتبع الشرق هدى

البصيرة ، واتبع الغرب هدى البصر ، فأنجب الأول الأنبياء، وأنجب الثانى العلماء ، فكانت هدية الانبياء الى العالم أديانا ترفع الأرض الى السماء ، وكانت هـــدية العلماء تهـــوى بالسماء الى الأرض ، ولكنما الانسان وقوى الانسان من ظاهره وباطنه فى مد وجزر متلازمين ، فللبصيرة ــ مثلما للبصر ــ مد يتلوه جزر يتلوه مد • ومن ذا ينــكر أن من بصــيرة الشرق قد فاض على العالم مد جارف من الكمالات والجمالات الروحية ؟ من ذا ينكر على الشرق قوة اندفعت من قلبه وفكره وروحــه الى كل قلب وفكر وروح ، فتغلغلت فى نبضاتها ، وسيطرت على خلجاتها ، وتسلطت على أقدس أشواقها وأعز أمانيها ؟

ثم يقول الرجل الذى خبر الشرق والغرب معايشـــة وفكرا :

« لاغـــرو أن يقف العالم وفى جملته هـــذا الشرق مشدوها تجاه مدينة الغرب المبصر ، أما اذا تصفحتم مساوئها فلن تجدوا مدنية قبلها بلغت ما بلغته من التكالب والتباغض والقساوة مع الكثير من التبجح بالعكس • واما عجبتم لمشهد غريب فاعجبوا معى لهذا الشرق ، وقد أهدى الى العالم المحبة والقناعة والتضامن والتآخى ، يقف اليوم على مفترق طريق البصيرة والبصر ، كسير القلب ذليل الجفن ضامر الصـــدر والبطن ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، وفى يساره قائمة بأسفاره المقدسة وأسماء أنبيائه • ثم اسمعوه يستعطى بصوت متهدج فيه الانسحاق وفيه المســكنة والاندحار •

وماذا عساه يستعطى ؟ انه ليستعطى طيارات ودبابات ومدمرات ومدافع وقنابل ، وانى أسمعه يقول : « من يقاضينى قنبلة محرقة بآية منزلة » مهمة الشرق ، وقد مهد الغرب له الطريق الى الهدف ، هى جلو ذلك الهدف كما يظهر فى كل بهائه نقيا من السفاسف والترهات التى حجب الجهل بهـا سناء وجهه باسم الله والدين ، ثم لم شعث الانسانية التائهة ما بين بصرها وبصيرتها ، وبث النشاط فى مفاصلها المفككة وبعث الايمان الدفين فى قلبها بجمال ذلك الهدف وحكمته وعدله » ٠

وقد طال الحوار والنقاش ، بل نشبت المعارك الفكرية حول الاجابة عن هذا السؤال : الى أين نتجه وماذا نأخذ وماذا ندع ؟ أو بتعبير ميخائيل نعيمة : طال الوقوف على مفترق طريق البصيرة والبصر ٠

وقد تمخضت تلك المعارك ـ لحسن الحظ ـ عن الموقف السديد الذى يقضى بأن نتصل بالحضارة والعلوم والآداب الغربية ونتعلم منها ونشارك فيها ، على أن نأخذ منها الصالح وندع الطالح ، ونغربل العادات والتقاليد عندنا وعندهم ، فنتمسك بالحسن وننبذ السيىء ٠ وكان هذا الموقف هو الذى دعا اليه جمال الدين الأفغانى وتابعه فيه تلاميذه ، ثم جاء من طوروا ذلك فكريا فأثبتوا أن كثيرا من الحضارات الغربية وعلومها وآدابها مأخوذ عن الحضارة العربية أيام ازدهارها ، وأننا اذا كنا الآن نأخذ منهم فقد

أخذوا منا ، والمسألة فوق كل شيء مسألة عالم انسانى يتبادل المعرفة والحضارة فى عصور مختلفة ۰

ومما يذكر أن بعض الذين أوغلوا منا فى الاتجـــاه الى الغرب وجعلوه قبلتهم فى كل شيء رجعوا الى أصالتهم العربية وكتبوا فى تاريخ العرب والاسلام وترجموا لأعلامه وأبطاله كنماذج انسانية متفردة ۰

نذكر من هؤلاء - على سبيل المثال - رجلين من قادة الفكر العربى الحديث ، هما محمد حسين هيكل وطه حسين الأول يحدثنا عن موقفه فى مقدمة كتابه « منزل الوحى » فيقول :

حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنـــوية وحياته الروحية ، لنتخذها جميعا هدى ونبراسا ، ولكنى أدركت بعد لأى أننى أضع البذر فى غير منبتـــه ، فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ، ولا تبعث الحيـــاة فيه ۰ وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعنة موئلا لوحى هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة ، فاذا الزمن واذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب يصلح بذرا لنهضة جديدة ۰ ثم رأيت أن تاريخنا الاسلامى هو وحده البذر الذى ينبت ويثمر ، ففيه حيـاة النفوس ، يجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرهـــا بعد حين » ۰

والثانى - طه حسين - فعل مثل ذلك ، وكان من أهم

مؤلفاته « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » و «عثمان» و « على وبنوه » و « الشيخان » ·

وبعض أدبائنا الذين رحلوا الى الغرب وأقاموا فيه سنين عادوا وفى وجدانهم وأفكارهم الروح القومى متأصلا، مثل توفيق الحكيم ، وقد ظهر ذلك فى أعماله الأدبية كرواية « عودة الروح » التى تعد من أدب المقاومة ، وفيها دفاع عن الأصالة المصرية وحديث قوى عن روح مصر الكامن الذى تجلوه الحوادث فيعود · وكذلك « عصفور من الشرق » التى عبر فيها عن روحانية الشرق المقابله لماديه الغرب · ومثل يحيى حقى وأثر ذلك واضح فى قصته « قنديل أم هاشم » ·

ومحاولات الاستعمار فى القضاء على العروبة فى بلادها بشمال افريقية معروفة ، وكذلك مقاومة اهلها واصرارهم على عروبتهم · وكان الأدب معبرا عن هذا الاصرار مقاوما لتلك المحاولات ، قال الشاعر الجزائرى محمد الحلوى :

زعموا أرضك الجزائر ملكا
لفرنسا تسلمته اغتناما

وتناسوا حضارة العرب الأم
جاد فيها والضاد والاسلاما

❋ ❋

زعموا أهلهـــا رعايا وشـــاءوا
أن يسوقوا أبناءهـــا أغنامـــا

فاذا بالأحرار يمتشقون السـ
ـيف نارا ويكشـــفون اللثامـــا

* *

مقاومة اللغة القومية

كانت اللغة العربية أهم الأهداف التى سددت اليها السهام بقصد تجزئة الوطن العربى ، لأنها أهم رابط يربط العرب فى مختلف أقطـــارهم . جد الاستعمار فى ذلك بمختلف الوسائل ، حاول أن يسحقها فى شمال افريقيـــا ويحل محلها لغته ، وزعمت أبواقه أن اللغة العربية لغة بدوية لا تفى بالتعبير عن الحضارة الحديثة ، ودعوا الى اللغـــات المحلية على نحو ما حدث فى أوربا من نشـــوء لغات محلية حلت محل اللاتينية .

ويحدثنا الأستاذ أنور الجندى فى كتابه « الادب العربى الحديث » عن وسائل الاستعمار ومحاولاته لقتل اللغة العربية يقول : « ألف أحد قضاة محكمة الاستئناف من الانجليز – القاضى ولمور – (١٩٠٢) كتابا سماه « لغة القاهرة »

وضع لها فيه قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والادب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وقد أشاد المقتطف بالكتاب . وقد روج المقتطف للغة العامية عام ١٨٨١ . كما دعا انجليزى آخر كان مهندسا للرى فى مصر هو « وليم ولكوكس » ١٩٢٦ الى هجر اللغة العربية وخطا بها خطوة عملية فترجم الانجيل الى ما سماه اللغة المصرية ، ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده ، فثارت ثائرة الناس » .

ويقول أنور الجندى :

« حارب الاستعمار الفرنسى اللغة العربية فى شمال افريقيا حربا عنيفة وضيق عليها ، ووضع مستشرقوه مختلف الكتب فى دراسة اللهجات البربرية وقواعدها لاحلالها محل اللغة العربية الفصحى ، وعمل الاستعمار فى كل من السودان والجزائر ومراكش وليبيا ومصر على تغليب اللهجات المحلية حتى يتفرق العرب ولا يفهم قطر لهجة القطر الآخر ، وبذلك ينفرط عقد القومية العربية . وقد وقع فى يد الدكتور حسين الهراوى تقرير فرنسى ينص على أن أول واجب هو التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها باحياء اللغات المحلية فى شمال افريقيا واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم . كما قد حاول الفرنسيون اصطناع بعض المفكرين الذين يدعون الى التغريب والتقارب مع فرنسا وجعل اللغة الفرنسية أداة

الفكر العربى وترجمة القرآن الى الفرنسية ، وهاجم ماسينيون ما سماه مثالب حروف الهجاء العربية وقواعد النحو » ٠

وقد قاوم الأدب تلك المحاولات ، ونشط الأدباء والمفكرون العرب فى تفنيد التهم التى وجهت الى لغتهم ٠

قال حافظ ابراهيم على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

وكانت اللغة العربية دائما أقوى سلاح فى معركة القومية العربية باعتبارها الرابط الاول بين العرب ، وقد وجهت العناية الى تأصيلها فى النفوس كمقوم من مقومات الشخصية العربية ، وكتبت فى ذلك كتابات كثيرة ، وقيل شعر كثير ، مما يعد فى أدب المقاومة الذى يعتد به ٠ وقد رأينا طرفا من الكتابات فيما أوردناه فى الفصل السابق فى معرض التعبير عن القومية العربية ٠

ومن ذلك ما كتبه جميل صدقى الزهاوى اذ قال :

« ان العروبة قائمة باللغة ، فما من عروة الا آمكن انفصامها سوى هذه فان عروقها ممتدة الى تلافيف الأدمغة ومتفرعة الى مخادع الأرواح · واللغة هى التى حفظت الى اليوم بيضة العرب وعصمتهم من الاندماج فى الشعوب التى ملكتهم عصورا ، وهى التى جعلت أبناءها يتساءلون عن بعضهم ويتراسلون فيما بينهم · وانى لا أزال مؤملا تضامن الأقطار العربية ما دامت لغتهم حية يتكلمون بها ويتكاتبون ويبثون بواسطتها أفكارهم ، واحساساتهم ، أما اذا ماتت اللغة فلا تضامن ولا وحدة ولا عروبة ولا حياة » ·

وكتب مصطفى صادق الرافعى يبين ميزات اللغة العربية ، فقال :

« تمتاز اللغة العربية على اللغات كافة بارتباطها الى الأصلين العظيمين : القرآن والحديث ، ان سواد الذين يتكلمون بهذه اللغة هم من أبعد الشعوب اغراقا فى تاريخ المدنية وذهابا فى عصورها وتغلغلا فى طبقات الميراث الانسانى · ان فى العربية نفسها نوعا من الاستهواء بما فيها من جمال التركيب وروعة اللفظ وحسن الأداء » ·

ولم ينحصر الدفاع عن اللغة العربية فيما كتبه العرب أنفسهم ، بل فعل ذلك أيضا بعض المستشرقين المنصفين،

فقد نقلت مجلة الهلال (١٩٢٣) أقوال بعضهم فى ذلك منها ما قاله « ريتشارد كوتهيل » :

« كان للغة العربية ماض مجيد ، وفى مذهبى أنه سيكون لها مستقبل باهر . ولأرباب العلم فى مصر وسوريا فضل فى ابقاء نورها ساطعا . وان شعبنا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ، ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى ، لا يخون ماضيه ، ولا ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلة من آبائه وأجداده » .

وكانت مجلة « الهلال » من قلاع اللغة العربية ، وجهود صاحبها (جورجى زيدان) فى خدمة هذه اللغة وآدابها معروفة . وقد كتب ينقد بعض المترجمين الذين لا يحسنون العربية ويوجههم الى تفهمها والاستفادة منها فقال :

« ترى بعض كتابنا ينظرون الى آدابنا العربية بعين الاحتقار ولا يتعبون أنفسهم فى تفهمها . ولو فعلوا ذلك لوجدوا فيها كنوزا ثمينة فى كثير من المواضيع التى يحتاجون الى نقلها من اللغات الافرنجية ، وقد يجدون فى تلك الكتب حقائق هامة غير ما يستفيدونه عن طريق التعبير والالفاظ الوضعية ، فيستعينون بذلك على تقويم أسلوبهم عند نقل ذلك العلم عن المصادر الافرنجية . ومن غريب ما رأيناه من هنا القبيل أن بعضهم يعتمدون على هذه المصادر

ولو كان ما يكتبونه متعلقا بعلوم العرب أنفسهم أو تاريخهم ولعلهم يفعلون ذلك لثقتهم بتدقيق الافرنج فيما يكتبونه لكن ذلك جر بعضهم الى ارتكاب خطأ شوه ما كتبوه ، فقد قرأنا كتابا حديثا في تاريخ الاسلام ، فرأينا فيه رسائل كتبها بعض القواد المسلمين الى خلفائهم فى صدر الاسلام، هى فى أصلها العربى مثال البلاغة وحسن البيان ،فترجمها مؤلف ذلك الكتاب عن الافرنجية ، فجاءت أعجمية اللهجة عارية من البلاغة العربية مع امكان نقلها بعبارتها الأصلية لفظا ومعنى » .

وقد كان لمجلة « الرسالة » وصاحبها (أحمد حسن الزيات) دور كبير فى تأصيل اللغة العربية وتطوير أسلوب الكتابة بها مع المحافظة على خصائصها وقواعدها، والى جانب الكتابات الرصينة بها كانت تنشر بعض المقالات النظرية التى تدافع عن اللغة وتظهر ميزانها ، من ذلك ما كتبه فيها أحمد رمزى (١٩٤٧) :

« ان أعظم مظاهر الشخصية للأمم هى اللغة ،ولغتنا العربية هى من أعظم لغات الأرض ، بل هى أقوى اللغات السامية التى شقت بحيوية أهلها طريقها فى التاريخ ، وتمثلت فيها عبقرية الأمة العربية وتفوق التفكير السامى وقدرته على الخلود ومواجهة أحداث الزمن ونكباته . ولها ميزة انفردت بها عن سائر اللغات السامية ، وهى أن غيرها فنى وانقرض ، وبقيت لغتنا خلال القرون وهى حافظة على قوة التعبير والقدرة على التطور والابداع » .

والواقع أن الانتاج الادبى نفسه المصاغ باللغة الفصيحة المتحررة من الركاكة والتكلف والقيود اللفظية التى ابتليتها فى العصور المتأخرة ـ هذا الانتاج نفسه يعد دفاعا عمليا عن اللغة وقدرتها على الوفاء بالتعبير عن كل ما جد فى الحياة العصرية الحديثة • وهذا الدفاع العملى لا يقل شأنا ان لم يزد عن الدفاع المباشر ، وبعد ذلك وذلك من أدب المقاومة لمحاولات القضاء على لغة العرب ومحاربة وحدتهم • ولعل البارودى الشاعر أول من حمل هذا اللواء ، وقد أوضح ذلك الدكتور زكى نجيب محمود فى البحث الذى ألقاه فى المؤتمر الثالث للكتاب الآسيويين الافريقيين الذى انعقد فى بيروت سنة ١٩٦٧ ، قال الدكتور زكى :

« ولا نترك الحديث عن أواخر القرن الماضى ، قبل أن نذكر أثرا شامخا من آثار المقاومة الوطنية لكل مستعمر أو دخيل ، لكنه ـ هذه المرة ـ أثر ايجابى بناء ، وضع البذور الأولى للنهضة العربية الشاملة ، التى ستزداد مع السنين ، حتى تصبح فى حياتنا الراهنة حركة ثورية لتحقيق الوحدة العربية ، وانما عنيت بذلك الأثر نهضة الشعر على يدى محمود سامى البارودى (١٨٢٩ ـ ١٩٠٤) اذ الأمر فيها لا يقتصر على الشعر وحده ، بل يتجاوز ذلك ليكون اقامة لأهم دعائم القومية العربية السليمة ، ألا وهى دعامة اللغة القومية ، فبعد ان ضعفت العربية مع الضعف السياسى

والاجتماعى خلال قرون امتدت ما امتد الحكم العثمانى ، أراد البارودى الشاعر أن تعود لنا القوة السياسية والاجتماعية بادئة من بدايتها الصحيحة ، ألا وهى اللغة » ٠

٤ ـ تحرر الشخصية القومية

تمخضت حركة المقاومة الأدبية التى بدأت من النهضة الحديثة واستمرت تقاوم الحكم العثمانى والاستعمارى تمخضت هذه الحركة الممتدة عن شعور الانسان العربى بذاته وشخصيته قوية شامخة متحررة من الهيبة الوهمية التى كان يشعر بها أمام الشخصية الأوربية ، ولا يستطيع المرء أن يحدد متى بدأ هذا الشعور ، ولكن يمكن أن نتبين اختلاف نوعيته أو اختلاف مظاهره ٠ نراه يبدأ مع بدء النهوض والانبعاث بتذكر الماضى واستلهام التاريخ ، طبقا لما سبق أن أوردناه من كلام ساطع الحصرى : « والتوقان الى السؤدد والمجد يبدأ بالتحسر على السيادة الماضية والمجد السالف ، كما أن الايمان بمستقبل الأمة يستمد قـوة من الاعتقاد بماضيها الباهر ، والنزوع الى الاتحاد يزداد شدة وحماسة بتجدد ذكريات الوحدة المضاعفة » ٠

ويقول محمد كرد على : « العقل العربى الذى شاد فى القديم قصر غمدان وسد مأرب ، وعمر فى الاسلام أموى دمشق ، وأقصى بيت القدس ، وقصور سامراء والفسطاط

وقصر الحمراء ، وجامع قرطبة ، وسدود بلنسية ،لا يستحيل عليه اليوم تمثل المدنية الحديثة حق التمثيل وأن يعمل أكثر مما عمل » .

ويكتب عبد الرحمن الكواكبى فى مجد العرب فيأتى بهذا الكلام الرائد فى الديمقراطية والاشتراكية قبل أوانه فى الفكر العربى الحديث ، اذ يقول :

« العرب هم أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة الاجتماعية ، وهم أعرق الأمم فى أصول الشورى وأهداها لأصول المعيشة الاشتراكية وأحرصها على احترام العهود » .

وتعد من قبيل الشعور بالقيمة الذاتية عن طريق الذكريات التاريخية روايات ومسرحيات كتبت فى أوائل النهضة العربية الحديثة تستلهم الماضى وتومىء الى الحاضر، مثل روايات جرجى زيدان ، ومسرحيات ابراهيم رمزى ، ومسرحيات شوقى الشعرية .

النوع الثانى أو المظهر الثانى الذى تطور اليه شعور الانسان العربى بشخصيته قوية شامخة هو تحسس عناصر الشخصية فى ذاته والبحث عنها فى أطواء نفسه ، وكان ذلك من هم رواد القصة المصريين فى العشرينات من هذا القرن ، وظهر ذلك أيضا فى شعر الشعراء الرومانسيين ، بل هو كان محور رومانسيتهم .

وان كان الاتجاه يختلف بين القصة والشعر ، كانت القصة تعالج مشكلات المجتمع وترمى الى الاصلاح الاجتماعى بطريقتها الفنية ، أما الشعر فكان - فى الغالب - تعبيرا عن الفرد وهمومه وأشواقه وتمزقاته .

وظل ذلك الشعور - على وجه عام - ينمو حتى اكتمل نموه بعد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، وتحقق للعرب ما دعا اليه روادهم الأوائل فى مثل ما أوردناه من كلام عبد الرحمن عزام فيما سبق اذ قال : « ليس بين العرب وبين بعثهم مرة أخرى الا أن يؤمنوا بأنفسهم وأن يؤمنوا بوجودهم ، فقد افتتنوا بعظمة غيرهم حتى نسوا ذلك الوجود » .

تحرر الانسان العربى - على وجه عام بصرف النظر عن حالات فردية - من أسطورة « الخواجة » سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وأحس بنفسه ذات كيان خاص لا يقل فى الاستعداد الحضارى عن الانسان الغربى ، الى ما يتميز به من مميزات خاصة يستمدها من أصوله وتراثه . وانعكس ذلك بصورة شاملة فى الانتاج الأدبى الذى كتب بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم بصورة أكثر التصاقا بالشخصية القومية وبالبيئة بعد ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، وخاصة فى مجال القصة والمسرحية .

وأقول « بصورة شاملة » لأنه قد سبقت ذلك تلك الاعمال القصصية الواقعية التى أشرنا اليها فيما سبق

والتى أخذ الكتاب العرب قالبها عن الغرب وصبوا فيه مضمون البيئة والشخصية العربية ·

واستمر ذلك الاتجاه يكافح على ضعف واعياء أمام شتى المعوقات ، حتى قوى واستوى على أعواده ، وكانت أعواده هى مجموعة من الشباب الجادين الذين تخصصوا فى فن القصة وصاروا فيما بعد أعلامه المرموقين ·

وفى مجال المقاومة تذكر من الانتاج المتصل بها روايات ومسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى : « الأرض » و « الشوارع الخلفية » و « قلوب خالية » و « مأساة جميلة » و « الفتى مهران » والأخيرتان مسرحيتان صيغتا على نمط الشعر الحر فامتازتا بالطلاقة والتحرر مما يعوق الشعر العمودى فى مجال المسرح ، فكان الشرقاوى الرائد الاول فى هذا المجال ، كما أراه الكاتب القصصى الأول فى ميدان المقاومة الادبية على وجه عام ، وله فيها كذلك رسائل شعرية ، ويمتاز عبد الرحمن الشرقاوى بأنه يقول كلمته الموضوعية فى صورة جمالية آسرة لا تتوافر لأنصار الشكل والجمال البحت أنفسهم ·

وتذكر كذلك قصص لعبد الحميد جودة السحار عصرية وتاريخية ، أهمها « الشارع الجديد » ومسرحيات لعلى أحمد باكثير منها « مسمار جحا » التى رمز فيها بمسمار جحا الى الاستعمار ، وعرضت على المسرح فى فترة من المنازعة بيننا وبين الانجليز ·

وكذلك قصص نجيب محفوظ التى كتبت قبل ثورة ٢٣ يوليو وبعدها ، فى « الثلاثية » تصوير مقاومة الشعب للانجليز حوالى ثورة ١٩١٩ ، وفى بعض انتاجه بعد الثورة تصوير لمقاومات ضد العناصر الداخلية المعاكسة للاتجاه الثورى ، وهى التى يطلق عليها الآن « الثورة المضادة » .

وقد نشر يوسف السباعى قصصا طويلة وقصيرة ومسرحية قبل الثورة فيها حملات على الأحزاب السياسية وتصوير لفسادها ، مثل رواية « أرض النفاق » ومسرحية « وراء الستار » وأضاف الى ذلك ما كتبه بعد الثورة وما أشرنا اليه فيما سبق .

وقصص ومسرحيات كثيرة لكتاب آخرين مثل روايتى « فى بيتنا رجل » و « شىء لا يهم » لاحسان عبد القدوس، ورواية « الجنة العذراء » لعبد الحليم عبد الله ، ومسرحية « اللحظة الحرجة » ليوسف ادريس ، ومسرحية « سليمان الحلبى » لألفريد فرج ، ومسرحية « الأرض العالية » لعبده بدوى ، ورواية « دماء على القنال » لجمال ربيع ، وقصص قصيرة كثيرة لابراهيم الوردانى ، وقصص قصيرة لمحمد صدقى .

والى جانب قصص هؤلاء ومسرحياتهم ظهر لبعض شيوخ الأدب انتاج قصصى يصور المقاومة الوطنية ، مثل رواية « أنا الشعب » لفريد أبو حديد ، وقصص كثيرة

لمحمود تيمور ، وأغنى توفيق الحكيم أدب المسرح ـ كدأبه ـ بمسرحيات « الأيدى الناعمة » و « الصفقة » و « الطعام لكل فم » .

ومن قصص المقاومة العربية على وجه عام قصة « الرغيف » لتوفيق يوسف عواد (لبنان) ، و « ابنة الكوخ » لكرم ملحم كرم (لبنان) و « الأمير الأحمر » لمارون عبود (لبنان) و « الكادحون » لذى النون أيوب (العراق) و « فتاة من فلسطين » لعبد الحليم عباس (الأردن) .

الفصل الثالث

كفاح الأدب فى فلسطين

لم يعرف العرب فى تاريخهم الحديث محنة أشد من محنة فلسطين ، وأقول كذلك : ان العرب لم يعرفوا فى تاريخهم الحديث ما يجمعهم ويوحد مشاعرهم ويثير روحهم القومية مثل هذه المحنة ، وأقول أكثر من هذا وترتيبا عليه : ان هذه المحنة ذات وجهين : وجه حالك يثير القلق والأسى ، والوجه الآخر مضىء ·· لأنه يضىء الطريق الى الوحدة والعزة العربية المأمولة ·

ومن الناحية الادبية لا نرى حادثا أثار الأدباء العرب وأفزعهم الى الكفاح والتعبير الشاعرى الملتهب ـ وكذلك التعبير العلمى الهادىء ـ مثل حادث اغتصاب فلسطين ·

وان ما قيل فى فلسطين من شعر وما كتب من نثر

يبلغ – فى حجه – عشرين فى المائة على الأقل مما قاله وكتبه شعراء العرب وكتابهم فى هذه الفترة . وهو من ناحية المستوى الادبى يتسم – فى معظمه – بالصدق والحرارة اللذين يغطيان أو يتعادلان مع بعض المباشرة والخطابية الحتمية فى هذا المجال .

عبر الأدب عن مأساة فلسطين بمختلف أشكاله ،فقد انفعل بها الأدباء ، وتفجرت عواطفهم شعرا ونثرا ، صوروا مآسى النازحين وفظائع المعتدين ، ودعوا الى الكفاح ،وعبأوا المشاعر ، وألقوا الأضواء على مطامع الصهيونية والإستعمار وصور أبناء فلسطين آلامهم وحنينهم الى الوطن السليب وايمانهم بالعودة اليه . فأثرى ذلك أدب المقاومة أى اثراء وأثر فى المقاومة نفسها التى انبعثت الآن من داخل البلاد المحتلة تفعل فعلها الذى أعتقد أنه نقطة الانطلاق الحقيقية وركيزة الكفاح فى سبيل التحرر والنصر .

ألفت كتب كثيرة عن فلسطين ، تتناول القضية من مختلف نواحيها وتدرس مقدماتها ونتائجها ، وتلقى الاضواء على الصهيونية ومطامعها وأساليبها وأنصارها ، نذكر من هذه الكتب ما يلى :

« فلسطين الثائرة بين العرب واليهود » لعبد السلام حسنى – القاهرة ١٩٣٩

«جهاد فلسطين العربية » لعمر أبو النصر وآخرين– يافا ١٩٣٦

« بلادنا فلسطين » لمصطفى مراد الدباغ ـ القاهرة ١٩٤٧ .

« وطن الشهيد » لبرهان الدين العيوشى ـ القدس ١٩٤٧ .

« الخطر اليهودى » لمحمد خليفة التونسى ـ القاهرة ١٩٥١ .

« الخطر الصهيونى » لابن العراق ـ القاهرة ١٩٤٩ .

« اضطهاد العرب فى اسرائيل » اعداد الامانة العامة لجامعة الدول العربية القاهرة ١٩٥٥ .

« سجل الارهاب الصهيونى » اعداد مصلحة الاستعلامات ـ القاهرة ١٩٦٣ .

« الاسلام فى قضية فلسطين » اعداد الهيئة العربية العليا لفلسطين ـ القاهرة ١٩٥٦ .

« ثورة فلسطين » لعبد الكريم العطار ـ القاهرة .

« الثورة العربية الكبرى فى فلسطين » لصبحى ياسين ـ القاهرة ١٩٥٩ .

« فلسطين فى المعركة » لفؤاد نصحى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

« سيناء أرض المعارك » لعبد الرحمن زكى ـ القاهرة ١٩٥٧ .

« فلسطين الشهيدة » لعبد الكريم العطار – القاهرة.

« شهيد فلسطين » لفوزى عبد الحميد – القاهرة .

« مأســـــاة فلسطين » لمحمد عزة دروزة – دمشق ١٩٥٨ .

« كارثة فلسطين العظمى » لفخرى البـــارودى – دمشق ١٩٥٠ .

« معنى النكبة » لقسطنطين زريق – بيروت ١٩٤٨.

« من أثر النكبة » لمحمـــــد نمر الخطيب – دمشق ١٩٥١ .

« بعد النكبة » لقدرى حافظ طوقان – بيروت ١٩٥٠

« أرملة من فلسطين » لعبد الحميد جودة السحار – القاهرة ١٩٥٩ .

« اللاجئـــون الفلسطينيون ضحايا الاســـتعمار الصهيونى » اعداد الهيئة العربية العليا لفلسطين – القاهرة ١٩٥٥ .

« طريق فلسطين » لعلى أبو حيدر – بيروت .

« عائدون يا فلسطين » لفؤاد محمد شوقى – القاهرة ١٩٦٠ .

« طريق العودة الى فلسطـين » لصبحى ياسـين – القاهرة ١٩٦٠ .

وظهرت الكتب الآتية فى دراسة ما قيل من الشعر فى فلسطين :

« الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين » لكامل السوافيرى — القاهرة ١٩٦٤ .

« صوت الشعر فى قضية فلسطين » لمحمد صادق عرنوس — القاهرة ١٩٦٥ .

« مأساة فلسطين وأثرها فى الشعر المعاصر » لصالح الأشتر — دمشق ١٩٦١ .

وظهرت مجموعات قصصية تجرى حوادث قصصها جميعا حول فلسطين ، وأبطالها فلسطينيون ، منها :

« التراب الحزين » للدكتور بديع حقى — دمشق . وقد فازت هذه المجموعة بجائزة الدولة التشجيعية فى الآداب من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى أثناء الوحدة بين مصر وسوريا .

« وجوه جديدة » لعزمى لبيب ، وللكاتب رواية عن فلسطين فازت باحدى الجوائز فى مسابقات نادى القصة بالقاهرة ، وهى الآن تحت الطبع .

« من وحى الواقع » لأمين ملحس — بيروت .

« الأخوات الحزينات » لنجاتى صدقى — القاهرة .

أما الشعر الذى قيل فى فلسطين فهو شىء كثير

لا يمكن الاحاطة به ، قاله الشعراء العرب فى مختلف مراحل القضية ابتداء من وعد بلفور الى وقتنا هذا ، وبطبيعة الحال أو بطبيعة العروبة الجامعة لم يقتصر الأمر على الشعراء من أبناء فلسطين ، بل شمل الشعراء العرب جميعا ، وما أظن أحدا منهم لم تهزه أحداث فلسطين ،حتى الرومانسيون مثل على محمود طه الذى ترك جندوله وكرنكه ولياليه التائهة فى البحار ، وتقدم الى المعركة يقول :

أخى جاوز الظالمون المدى
فحق الجهاد وحق الفدا
وليسوا بغير صليل السيوف
يجيبون صوتا لنا أو صدى

وبلغ الصوت أسماع الشعراء العرب فى مهاجرهم ، فجاء الصدى يقول (رشيد سليم الخورى - الشاعر القروى) :

كفى الميت منا أن يحس له فقد
أبعد هلاك الجمع يستفقد الفرد ؟
أبعد فلسطين يناح على فتى
وهل بقيت فى مقلة دمعة بعد ؟
بكائى على المليون أنضب أدمعى
فما أنا الا النار والحجر الصلد
ألا دمعة من لاجئ أستمدها
فأبكيه بالبحر الذى جزره مد ؟

وما الحقد من طبعي ولكن اذا بغى
على وطني الباغون فجرني الحقـد

ومن شبت النيران حول وليــــده
فليس له من خوض لجتهـــــــا بد

ومارد عني عار قــومي « تأمركي »
فهل أنا حقـــا سيد وأخي عبد ؟

ونحا الشعر العربي في فلسطين مناحي مختلفة ، في بعضها جدة ، فالخيمة التي كان لها في نفوسنا صـــــورة جميلة ـ كما يحدثنا الدكتور جميل سعيد في بحث له ـ كالتي عبرت عنها زوجة معاوية بن أبي سفيان البدوية وهي تتشوق الى خيمتها في البادية وتفضلها على قصر الخليفة :

لبيت تخفق الأرواح فيــــه
أحب الي من قصر منيف

هذه الصورة ، صورة الخيمة، الحبيبة الى نفوس العرب أحالها اللاجئون الى صورة بشعة كريهة، اذ وصفها شعراؤهم أبشع وصف ، كما يقول « رجا سمرين » :

وصـــــمة أنت في جبين الدهور
يا خياما في القفر مثل القبور
يا نشـــاز الأنغام ، يا ســـبة التاري
خ والناس في جميـــع العصـــور

أنت مأوى للبؤس شيدك الظلـ
م على رسم حقنا المهدور
أنت سفر الآلام سطره البغـ
ى بأيد مخضوبة بالشرور

كم حوى نسجك الأرث عزيزا
يسفح الدمع فى دجى الديجور
راثيا عيشه الكريم وعهدا
قد قضاه منعما فى القصور
يوم أن كان فى الديار كريما
يترع الكأس من مدام السرور

ومن أهم ما اتجه اليه الشعراء فى هذه المأساة استنهاض العزائم للكفاح واسترداد البلد السليب، يخاطبون فى ذلك معالم فلسطين مثل جبل النار وثورتها سنة ١٩٣٦ كما يقول الشاعر العراقى الدكتور عبد الجبار المطلبى :

جبل النار موئل المجد والعز
أما آن أن تشب النارا
أنت أضرمتها قديما على الجور
فكنت الشواظ والاعصارا

ويصف مجلس الأمن بما لا يزال ·· فيقول :

مجلس الأمن كذبة الدول الكبرى
لكيما تحقق الأوطارا

أى حق لآل صـــهيون حتى
يتحـــدوا ديارنا والدمارا

وعجيب مشردون حيـــارى
وطئوا أرضنا وعاثوا جهـــارا

وأذلاء مشبعون احتقـــارا
غزوا القدس واستباحوا الديارا

والحقيقة التى أقنعتنا الحوادث بهـا ، وهى أنه لاحق يؤخذ بغير القوة ، يعبر عنها شاعرنا (المطلبى) بقوله :

يا بنى العرب لا تشبوا سوىالنار
اذا ما ادلهم خطب وجـــارا

نحن فى غابة وما زال فيهـــا
منطق الظفر قاضيا جبـــارا

كذب الحق ، انمـــا الحق عسف
يبعث الهول فى الدنا والدمارا

ليس الا مدافع تبعث الرعب
والا لظى تشـــب الأوارا

فاحذروا غفوة السكوت وشـــدوا
ليس هذا الســـكوت الا انتحارا

هذا وســـنضطر الى الاكتفاء بهذا القدر القليل ،

وننتزع أنفسنا انتزاعا من بين أمواج هذا البحر اللجى..
من الشعر الكثير الذى قيل فى فلسطين ، والذى صم طائفة كبيرة منه كتاب «الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين» للأديب الفلسطينى كامل السوافيرى ، وقد جمع الشاعر محمود حسن اسماعيل مجموعة طيبة منه صدرت فى كتاب بعنوان « الشعر فى المعركة ـ عام ١٩٦٧ » .

وذلك لكى نصل الى حاضر قائم خافق نابض ، هو المقاومة الأدبية التى تواكب المقاومة الشعبية المسلحة الجارية الآن فى داخل الأرض المحتلة . لم نكن نعرف عن هذا الأدب المقاوم الجديد الا نتفا يسيرة تحملها الينا الأنباء من حين لحين . حتى ظفرنا ببحث قيم للكاتب اللبنانى غسان كنفانى عنوانه « أدب المقاومة الفلسطينى » أعده لمؤتمر الأدباء العرب السادس الذى انعقد بالقاهرة فى مارس ١٩٦٨ .

يبدأ غسان كنفانى بحثه بالحديث عن مسرحية كتبها فى الأرض المحتلة شاب اسمه « توفيق فياض » واسم المسرحية « بيت الجنون » وقد نشرت فى عددين من الملحق الأسبوعى لجريدة الأنوار اللبنانية فى آب (أغسطس) ١٩٦٧ .

يقدم لنا هذه المسرحية كعلامة بارزة فى أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة ، فهى ، شكلا ومضمونا ، أكثر من صرخة شجاعة ، أنها تفسير وموقف ونبوءة ، فالبطل سامى

وحده هو بطل المسرحيـــة ، وكلمة « وحده » ليست رفاها تكنيكيا فى المسرحية ، ولكنها اعلان عن الموقف بالشكل ، والجمهور الذى يواجهه البطل طرف فى صلب المسرحية ، وحين يقف على مقدمة المسرح يواجه فجأة ظاهرة غريبـــة فيقول بارتياب :

ـ لماذا تنظرون الى هكذا ؟ لماذا تتخذون جميعكم نفس الهيئة حين أنظر اليكم ؟ أو أحدثكم ؟ .

وفى النهاية ، حين يشعر أنه محاصر بالذين جاءوا ليقبضوا عليه بلا سبب وبالريح الغريبة ، وبالكابوس ، يعلن موقفه كما يلى :

ـ هناك .. انت .. هل تســمع ؟ انى لا أخافكم ، لا أرهبكم ، سأتحداكم جميعا .. جميعا ، وحدى .

ويخرج سامى من الباب ، بينما نسمع صوته يدوى: « وحدى » .

ويقول غســان كنفانى : « ان أدب المقــاومة فى فلسطين المحتلة يتميز بهذه الرؤيا العميقة (يقصد الأبعاد المحلية والعربية والعالمية) ولذلك فهو يقاتل على أكثر من جهة ، وسيكون من المدهش حقا أن يرى الدارس فى انتاج أدباء الأرض المحتلة ادراكا مبكرا ، عبر الشــعر والقصــة والمسرحية ، لكثير من معطيــات الموقف الذى اكتشفه الأدباء العرب ، أو على وشك ، فى مختلف البلاد العربية ، على العموم ، فى أعقاب . حزيران ـ يونية » .

ويقدم لنا أدباء المقاومة فى فلسطين لا بصفتهم الفنية فحسب ، بل باعتبارهم منتسبين فعلا الى الحركة الوطنية ، يناضلون من خلال تنظيماتها ، ويذوقون فى سبيلها سياسة القمع الاسرائيلية ٠

الشاعر محمود درويش أودع السجن مرارا ، والشاعر سميح القاسم قد ذاق مرارة الأحكام العسكرية ، وما زال الشاعر حبيب قهوجى أحد مؤسسى حركة « الأرض » فى المنفى الجبرى ٠ والشاعر فوزى الأسمر طرد من وظيفته فى شركة أهليـــة ، بضغط الحكومة الاسرائيلية ، بسبب شعره ونضاله السياسى معا ، وتعرض الشاعر توفيق زيادة للطرد من وظيفته وكذلك توفيق فياض ، وغيرهم ٠

ويربط هؤلاء الأدباء بين المسألة الاجتماعية والمسألة السياسية فى صيغة متلاحمة تقوم بمهمة المقاومة ، يقول راشد حسين فى قصيدة له يغازل فتاته :

ونمر فى أطيانكم يوما فيصدفنا أجير
قذر الثياب ، فتبصقين على التراب
فأحس فى عينى اعصارا
وفى بدنى سعيرا
وأقول : يا بنت الأمير !
أنا كل شعرى للأجير

ويقول محمود درويش :
ولأنى أحمل الصخر

وداء الحب

والشمس الغريبة

أنا أبكى !

أنا أمضى قبل ميعادى ، مبكر

عمرنا أضيق منا

عمرنا أصغر أصغر ..

أصحيح يثمر الموت حياة ؟

هــل ســأثمر

فى يد الجائع خبزا

فى فم الأطفال سكر ؟

ويدعو الى النضال :

فاحموا سنابلكم من الاعصار

بالقدم المسمر

هاتوا السياج من الصدور

من الصــدور

فكيف يكسر ؟

اقبض على عنق السنابل

مثلما عانقت خنجر

الأرض والفلاح والاصرار

قل لى : كيف تقهر ؟

هــذى الأقانيم الثلاثة

كيــف تقهر ؟

ان هؤلاء الشعراء من الريف الفلسطيني ، وسكان هذا الريف المحتل هم الذين بادروا الى النضال الوطني وتحملوا القسط الأوفر من مسئولياته ونتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وحقا ان الأدب العربي الحديث في مضمار المقاومة لم يهمل المسـألة الاجتمـاعية من مختلف النواحي . فعندما هب « الرصافي » يقاوم الاستبداد التركي جعل يقارن الترف بقصر «يلدز» بما يعانيه الفقراء في الأكواخ . وتتابع اهتمام الأدباء ـ وخاصة في الكتابة القصصية ـ بالكادحين والفقراء . ودعا قاسم أمين الى تحرير المرأة ، واتصلت دعوته حتى حققت مراميها .

ولكننا نلحظ هنا ـ في أدب المقاومة الفلسـطيني الجديد ـ أن التعبير ينبع من مصدر المعاناة نفسه ، ويلتحم مع المقاومة الوطنية التحاما عضويا ، فليست المسـألة عطفا أو تعاطفا أو شعورا بآلام الغير ، انما احساس عميق وتعبير يتميز بالأصالة في الشكل وفي المضمون . ويجيء الشكل الجديد هنا تلبية لحاجة المضمون الجديد .

أما « البعد العربي » كما يسميه الأستاذ غسان فهو مشترك ، لم يتخل عنه الأدب العربي في أي مرحلة من مراحل المقاومة ، رأيناه في الحروب الصليبية ، ورأيناه في مقاومة الترك والاستعمار . غير أننا نستطيع أن نتبين اختلاف الملامح . بدأ شـعراؤنا يسـتعيدون الذكريات

التاريخية ، ويفخرون بالمجد القديم ، ويهيبون بالجيل الحاضر أن يفعل مثل مافعل الأجداد ، وهنا — فى أدب المقاومة فى الأرض المحتلة — نجد بدلا من ذلك انبعاثا ذاتيا، وثقة بالنفس لاحد لها ، وتحديا عجيبا للقوى المعادية واصرارا على تحويل العذاب الى حافز ثورى ٠

وقد كان المضمون العربى التقليدى يبرز فى ثوب تقليدى كذلك ، أما الآن على الأرض التى تتفجر بالألغام تحت أقدام المحتل — فاننا نرى التعبير يتفجر بالنار المشتعلة ، ويتوثب فى زى جديد يصنعه المناضلون أنفسهم على غير مثال سابق ٠

وأما « البعد العالمى » فهو جديد عند شعراء الأرض المحتلة كما هو عند غيرهم من الشعراء الجدد (زمنا) ، وان كان الأولون يمتازون بمستوى عال فيه ، هو مستوى الالتزام الواعى العميق فى كل الأبعاد : المحلى والعربى والعالمى ٠

وليس معنى هذه الأبعاد أن هناك فصلا بينها ٠ انما هو التحليل الذى يلجأ اليه الدارس ، على نحو مافعل غسان كنفانى ، انه كائن عضوى واحد يأخذ الأبعاد الثلاثة معا أو اثنين أو واحدا منها ٠ وكذلك الأمر بالنسبة للمسألة الاجتماعية والمسألة السياسية ٠ يجتمع الكل فى واحد ، وهذا « الواحد » هو النضال : نضال كل القوى المعوقة والمعادية ، باصرار وتفاؤل ٠

يقول محمود درويش :

رموا أهلى الى المنفى

وجاءوا يشترون النار من صوتى

لأخرج من ظلام السجن

ـ ما أفعل ؟

ـ تحد السجن والسجان

فان حلاوة الايمان

تذيب مرارة الحنظل

وليفعلوا أكثر من ذلك ، فهو يصر قائلا :

شدوا وثاقى

وامنعوا عنى الدفاتر

والسجائر

وضعوا التراب على فمى

فالشعر دم القلب

ملح الخبز

ماء العين

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر

سأقولها

فى غرفة التوقيف

فى الحمام

في الاصطبل
تحت السوط !
تحت القيـد
في عنف السلاسل :
مليون عصفور
على أغصـان قلبي :
يخلق اللحن المقاتل

وليس الاصرار فرديا فقط ، بل هو اصرار القوم كلهم اصرار الأرض التي تنبت الثوار، كما يقول محمود درويش:

فالوحش يقتل ثائرا
والأرض تنبت ألف ثائر
ياكبرياء الجرح .. لو متنا
لحاربت المقابر !
فملاحم الدم في ترابك
مالها فينا أواخر
حتى يعود القمح للفلاح
يرقص في البيادر

ومما يعبر عن التفاؤل قول توفيق زيادة عن ٥ يونية :

كبوة هذى
وكم يحدث أن يكبو الهمام

انها للخلف كانت
خطوة من أجل عشر للأمام !

ومن الالتزام العربى والعالمى العام نظرة محمود درويش للقضية كلها : قضية التحرر العالمى :

لا تقل لى :
ليتنى بائع خبز فى الجزائر
لأغنى مع ثائر
لا تقل لى :
ليتنى راعى مواش فى اليمن
لأغنى لانتفاضات الزمن
لا تقل لى :
ليتنى عامل مقهى فى هفانا
لأغنى لانتصارات الحزانى
لا تقل لى :
ليتنى أعمل فى أسوان حمالا صغيرا
لأغنى للصخور
ياصديقى !
أرضنا ليست بعاقر
كل أرض ، ولها ميلادها
كل فجر ، وله موعد ثائر

ومثل هذا المزج بين النضال المحلى والنضال العالمى

يفعل سميح القاسم فى قصيدة الى ثوار « فيتكونغ » ينتقل فيها من القتال فى فيتنام الى « أرض الجبهة » هكذا :

وأحس بكفى تتقلص
وأغيب لبرهة
وأحس كأنى أتربص
بذئاب الغزو على أرض الجبهة
وأصب على الأشباح النار وأبكى

ثم يعود الى العالم الواسع بين أمريكا وفيتنام :

من يجرع فى بارات نيويورك الويسكى ؟
من يلقى فى الملهى حلوة ؟
من ينشدفى الشارع غنوة ؟
من يحرث فى أمريكا ؟ من يزرع ؟
من يحرس فى فيتنام ويزرع ؟
من يبقى فى المصنع ؟
من يبقى ؟
يا آلهة الموت الحمقى فى أمريكا
يا آلهة الموت الحمقى !

والالتزام الوطنى عقيدة ملحة يدعو اليهـا سـميح القاسم عمالقة الأقلام فى الوطن العربى ، فيقول فى قصيدة بعنوان « بطاقة الى نجيب محفوظ » :

فاغرف من أعماق البئر العذراء
واسق العامل والفران وأولاد الحارة

فالناس ظمآء !
اكتب عن شحذ الهمة
واكتب عن أحلام الأمة
طوبى للحرف الشامخ فى الليل مناره
والعار لأبراج العاج المنهاره

خاتمة

تلك نظرة عامة سريعة الى أدب المقاومة العربى ، فاذا نظرنا فى الحاضر مع التطلع الى المستقبل فاننا نلاحظ عدة أمور :

١ ــ تثار أحيانا كلمة « حرية الأديب » بصدد ما يرجى من التزامه بواقع النضال القومى ، ويقول المعترض: كيف يفرض على الأديب شىء خارج عن نفسه ، وكيف يتفق ذلك مع الصدق الفنى ؟ والمسألة ــ فى نظرى ــ تتعلق بشخص الأديب ، بمعنى انه اذا كان منشغل الفكر والوجدان بالقضايا العامة شاعرا بنبضات قومه أو بنبضاته كفرد من القوم ، فانه سينفعل بها حتما وتمتزج بذاته حتما ايضا ، فيعبر عنها بمحض اختياره ، وستطلب حريته نفسها هذا التعبير ، واذا عاقه عائق عنها يشعر بالضغط وفقد الحرية ·

وقد عانى أدباؤنا الاحرار فى الماضى كثيرا من الشدائد وتعرضوا لكثير من الظلم والاضطهاد فى طلب الحرية ، وبرغم ذلك قالوا كلماتهم حرة ، وكانوا فى تعبيرهم الأدبى صادقين مختارين ، ومنهم من احتال على أن يقول كلمته

بالرمز كما فعل ابن المقفع قديما فى « كليلة ودمنة » وعلى باكثير حديثا فى « مسمار جحا » ٠

وقد نشأ عن انفعال أدبائنا بالأحداث الوطنية من أول عصر النهضة الحديثة أن أخذت الأغراض الوطنية القومية مكانا فسيحا بين أغراض الأدب ٠ بل هى دفعت بالأدب كله الى الانبعاث والتقدم ، اذ شعر الأديب العربى بشخصيته ، وعمل على أن يحققها متحديا ، ان واعيا فى الظاهر أو غير واع ـ من يرمونه بالنقص وأهلية التخلف ٠

٢ ـــ وهناك قضية أخرى هى « المباشرة » التى تظهر فعلا فى بعض المحاولات الأدبية فى المجال الوطنى ، اذ تغلب الكاتب أو الشاعر افكاره أو حماسته فتفسد عليه الناحية الفنية ، فيحاول المعوقون أن يتخذوا ذلك ذريعة الى الطعن فى الأدب الوطنى جملة ٠٠ وانما تأتى المباشرة أو الخطابية اما من نقص الملكة الأدبية ، واما من الافتعال غير الصادق ، واما من نقص الثقافة الأدبية وقلة التمرس بالعمل الأدبى ٠ أما الأديب الموهوب الصادق المثقف المتمرس فهو الذى يعطينا أدب المقاومة العظيم الذى نراه فى روائع الآداب العربية والأجنبية مثل قصة « الأم » لمكسيم جوركى و « مأساة جميلة » لعبد الرحمن الشرقاوى ، وليس هناك ـ فى رأيى ـ أدب أعظم من الذى يجمع بين الهدف وبين الخصائص الفنية فى تكامل ، بحيث يوحى بما يقول ولا يصرح بأنه يقول ٠

٣ – ونحن الآن نعيش فترة نتوجه موقفا لا يحتمل أى اعتراض على أن يتجه الادب الى المعركة ويأخذ مكانه فى ميدان المقاومة ، فان صح أن يقال أى شىء عكس ذلك فى أى وقت من الأوقات فانه لا يصح فى هذا الوقت ·

لقد بدأت المقاومة المسلحة فى فلسطين من الداخل ·· من أبناء فلسطين الأخيذة ، وهى الآن تأخذ فى التصاعد وتعمل فيها بطولات تسـندها جبهة ممتـدة على الرقعة العربية كلها ، وهـذه هى بذرة النصر تنمو فى الأرض المحتلة نفسها ، ولا بد من نمو سريع يؤتى أكله فى أقرب حين ·

وهناك كما رأينا تقف المقـاومة الأدبية الى جانب المقاومة المسلحة ، حيث يعمل « السيف » (١) والقلم جنبا الى جنب · ولا أرانى فى حاجة الى ايضاح ان المعركة هى معركة العرب جميعا ، وأن قضيتها لا تنفصل عن قضيـة الكفاح العربى الموحد ، فاذا كانت منظمات المقاومة الشعبية الفلسطينية المسلحة فى حاجة الى مساندة الجبهة العربية الواسعة بشتى الوسائل ، فيجب أن يكون الأدب من هذه الوسائل ، بل ينبغى أن يقودها وينير لها الطريق ·

وأعود هنا الى مسألة المباشرة والخطابية وجهـارة الصوت ·· للتحذير منها ، فهى مفسدة للفن ·· مفسدة للهدف نفسه ··

---

(١) «السيف» رمز السلاح على وجه عام ·

ان الأدب المناضل لايكون مناضلا فعالا الا اذا اكتملت أدواته ومعداته ، وما هى الا الموهبة الأدبية الحقيقية لا الزائفة ، والايحاء الصادق لا المفتعل ، والقدرة التعبيرية المصورة الموحية ، لا المباشرة الصارخة

وما أشد الحاجة ، الى من يميز هذا من ذاك • وهذا هو دور أجهزة النشر والاعلام فى مجال الكتاب والصحافة والمسرح والاذاعة والتلفزيون • واذا كنا نلحظ الآن فى بعض أركانها خلطا بين الفن المناضل والخطابة الصارخة من ناحية ، وبين المتعة الفنية ـ والتفاهـات المغرقـة فى التهريج من ناحية أخرى ، فاننا نرجو أن ترفعنا المعركة الى المستوى الجاد المطلوب،ولاأقصد بالجاد ما يقابل الفكاهة، انما أعنى به مايقابل الهذر والتفاهات،وكثيرا ماتكون الفكاهة جادة •• بل هى تكون خيرا من الجد فى بعض الأحيان •